تهامة
TIHAMA
الكتاب العربي السعودي ٣٠

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز
في القرن الرابع عشر للهجرة

١٣٠١ - ١٤٠٠ هـ
١٨٨٣ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

جميع الحقوق لهذه الطبعة محفوظة للناشر

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الانسان فسواه ، وصوره فاحسن تصويره ، ووهبه من الصفات والمزايا وفضله على سائر المخلوقات ، وارسل الانبياء والرسل لهدايته وتقويمه ، وجعل له الخلافة فى الارض واسبغ عليه من نعمه مالا يحصيه العد ولا يصل اليه حد ، والصلاة والسلام على خاتم انبيائه ورسله وصفوته من الخلق سيدنا ونبينا محمد الذى ارسله الله هدى للعالمين ورحمة ، والذى اصطفاه ورباه وقومه احسن تقويم ، فكان كما قال تعالى فى وصفه« وانك لعلى خلق عظيم » صلوات الله وسلامه عليه وعلى كافة الانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وبعد فهذه تراجم لبعض اعلام الرجال الذين عاصرتهم وقد انتقلوا جميعا الى جوار ربهم وهم جميعا ممن ولدوا وتوفوا خلال القرن الرابع عشر الهجرى الذى نقترب من نهايته ، وأغلب هؤلاء الرجال ممن اتصلت اسبابى باسبابهم فعرفتهم عن قرب وخبرت من أمورهم ما قد يخفى على كثير من شباب الامة ورجالها خاصة وان الكثير ممن عاصرهم وعرفهم اما أن يكون قد لحق بهم أو انه مثلى فى الطريق اليهم ، ورأيت أن من الخير التعريف بهم والتذكير بما كانوا عليه من كريم الصفات وما قاموا به من عمل نافع ، على اختلاف وجوه هذه الاعمال التى يمكن ان تجتمع تحت كلمة (النفع العام) نعم فان جميع هؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم كانوا قد وهبوا انفسهم للخدمة العامة على اختلاف السبل ، وتفاوت الدرجات ، ولست ازعم ان هؤلاء الرجال قد سلموا من الشوائب ، أو تبرأوا من النقص فهم بشرٌ كسائر

الناس ولكنى رأيت ان صفات الخير قد غلبت عليهم ، وانهم تغلبوا على الانانية الفردية فوهبوا من نفوسهم واموالهم واوقاتهم للناس ما يجعلهم مثلا يحتذى وحديثا يتردد فهم من الصفوة التى تتخذ قدوة حسنة لمن يرغب السير فى طريق الخير والنفع العام ، كما ان من الواجب ان اوضح أن كلما كتبته عن هؤلاء الرجال هو تسجيل لذكرياتى عنهم وعن اعمالهم ، فهذه التراجم ادخل فى باب الذكريات منها فى باب التراجم التى قد يتطلب فيها الكثير من التدقيق ، كما انى اود ان اذكر ان هؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم لم يكونوا وحيدين فى عصرهم وانما كان لهم اخوة وزملاء لاشك ان الكثيرين منهم يستحق ان يكتب عنه ويشاد بذكره ولكنى انما كتبت عمن اعرف ولعل غيرى من الاخوة الكتاب فى كافة مدن المملكة يكتب عن اعلام بلده ومن عرف منهم إحياء للذكريات الحسنة والاعمال الطيبه ، ولاشك ان هذا ان تم فستكون هناك حصيلة طيبة لاعلام هذا القرن تكون سندا لمن يكتبون تاريخه ويسجلون وقائعه ، فالتاريخ انما يصنعه الرجال .

وهناك مسألة اخيرة أود أن اذكرها فى ختام هذا الحديث لقد كتبت عن الأعلام الذين توفاهم الله والذين ولدوا وتوفوا خلال هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، ولم اتعرض للكتابة عن الأعلام الكثيرين الباقين على قيد الحياة والذين اسأل الله تعالى لهم حياة طيبة مديدة وعملا نافعا طيبا ، فلا يخفى ان الكتابة عن الاحياء لايمكن ان تتم بنفس الاسلوب الذى اتبعته فى الكتابة عن ذكرياتى عن هؤلاء الرجال الذين انتقلوا الى جوار ربهم وهو الاسلوب الخاص بالجانب الحسن من حياتهم لان ذلك ان تم فى حال الحياة ربما اعتبره البعض من اسباب التقرب اليهم وتطلب موداتهم ، وليس هذا هو الغرض من كتابة هذه الذكريات بحال من الاحوال ، ولاشك ان كل من يقوم بعمل نافع فسيلقى جزاءه فى الدنيا ذكرا حسنا وفى الآخرة مثوبة واجرا وانى لأرجو ان يتيسر لى الكتابة عن طائفة اخرى من الاعلام فى وقت قريب والله المعين وعليه الاتكال .

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

الشيخ أحمد الزهراء

لعله من المستحسن قبل الكلام عن ترجمة الشيخ احمد الزهراء ان اوضح للقراء الكرام القاعدة التى اتبعها فى الكتابة عن الرجال الذين عاصرتهم او عاصرت اخبارهم وآثارهم ، ان هذه القاعدة تتلخص عندى فى ان تكون حياة صاحب الترجمة واعماله ذات نفع ملموس للمجتمع سواء اكان هذا النفع يتمثل فى خدمة عامة ادّاها للناس مضحيا بماله او جهده فى سبيلهـا او كان فى عمـل حضارى قدمه لبلاده وان كان قد افاد هو منه ربحا وفيرا او مالا كثيرا وليست القاعدة عندى فى الكتابة عن الرجال هى الشهرة فحسب ، فقد يكون الرجل جهير الاسم ذائع الصيت ولكنها شهرة لاتتصل بالنفع العام اوبخدمة الناس ، قد تكون الشهرة بالطغيان مثلا فى الثراء وفى ظلم الناس واضطهادهم والاساءة اليهم ، ليست الشهرة اوذيوع الصيت هى الدافع عندى فى الكتابة عن اعلام الرجال وانما الدافع هو ما اثمرته حياة هؤلاء الناس وجهودهم من نفع للناس واثراء للحياة نفسها فى شتى المجالات ، وبعد هذه المقدمة التى رأيتها ضرورية بين يدى هذه الترجمة بالذات نعود الى صاحب الترجمة فنقول :

ضئيل الجسم اقرب الى القصر ، اصفر اللون ، مغضن الوجه ، كفيف البصر يرتدى القفطان والعمامة المصرية وهي طربوش داكن الحمرة له زرٌ طويل اسود وتطوقه عمامة بيضاء وهذا الزيّ فى مجموعه هو زيُّ العلماء المصريين ولايزال سائدا حتى اليوم ، وكان الشيخ احمد الزهراء شديد البخل مضيقا على نفسه فلم يكن يرتدى سوى الملابس الصوفية الغليظة حتى فى ايام الصيف الذى يشتد فى مدينة جدة شدته المعروفة ولم تكن له زوجة او خادم يقوم بشأنه ولم يكن له مطبخ فى داره وانما كان يأكل الغليظ من الطعام كالعيش والبصل والكرَّات ، هذا حينما يأكل فى داره ولقد كان يشترى الجواري فلا تقيم الواحدة منهن فى داره الا اياما ثم تطلب منه ان يبيعها لغيره فلم يكن يطيق العيش معه انسان ، وعلى ذكر الجواري فقد كان هناك سوق للرقيق فى مدينة جدة وفى مكة المكرمة ايضا وكان الرقيق الذى يرد من الحبشة والسودان وافريقيا بصورة عامة يعرض فى هذه الاسواق ويقوم على شؤون هذه الاسواق باعة مشهورون اودلاَّلون على الاصح واشهر دلاَّلى الرقيق الذين ادركتهم فى جده كان رجلا حضرميا اسمه حسن العامودى وقد اختفت هذه الاسواق بعد ذلك ولكن الرقيق كان يعرض للبيع فى بيت حسن العامودى آنف الذكر وكان يذهب اليه المشترون لاختيار الجارية التى يرغبون شراءها وقد تؤخذ للدار لتجربتها لفترة يومين او ثلاثة حتى اذا ثبت للمشترى صلاحها وخلوها من العيوب الصحية اشتراها وقد انتهت هذه التجارة اللاانسانيةً الى غير رجعة حينما اصدرت الحكومة أوامرها بعتق الرقيق وتعويض اصحابه الاثمان التى دفعوها فى شرائه وكان ذلك فى عهد رئاسة المرحوم الملك فيصل للوزارة اثناء ولاية الملك سعود للعرش رحمهما الله ، ومن ألطف ما اذكره عن تجارة الرقيق هذه ان كبيرا من اثرياء نجد كتب الى صديق له فى الحجاز يطلب منه شراء جوار لايشربن الدخان وليس عليهن زيران ، وشرب الدخان هو

استعمال السجاير كما هو معلوم اما الزيران فجمع زاز وهذا الزار كان نوعا من انواع الشعوذة التى كانت سائدة فى النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى وكانت تمارس خفية فى العهد السعودى وهى ادعاء بعض المشعوذين والمشعوذات شفاء الامراض بعمل الزار او ما يسمى النعيش وهو اقامة حفلات رقص يلبس فيها النساء ملابس الرجال ويتحدثن الى صانعى الزيران والى الحاضرين بلغة بدوية صرفة وتذبح فيها الذبائح للجن والعفاريت والعياذ بالله وربما تكون هذه البدعة الوثنيه وفدت الى الحجاز من بعض البلاد المجاورة وقد انتهت هذه العادات السيئة التى تدخل مرتكبيها فى ابواب من الشرك والعياذ بالله الى غير رجعة فلم يعد لها اثر فيما اعلم والحمد لله ، نعود بعد هذا الاستطراد الى الشيخ احمد الزهراء فنقول انه لم يكن يطيق العيش معه انسان وهو على ما وصفنا من الضيق والتقتير على نفسه ومن معه ، وكان الرجل الى كل هذا طالب علم له حلقة للتدريس فى مسجد الشافعى وهو اقدم مساجد جدة ، وكان له تلامذة يحبونه ويخدمونه وكان الرجل مقرئا بل عالما بالقراءات السبع ومن اشهر المقرئين المجودين وكان الناس يدعونه الى تلاوة القرآن فى مآتمهم وفى ملحقات هذه المآتم اذا صحَّ هذا التعبير ذلك ان الناس كانوا يتمسكون بعادات كثيرة فى الموت كادت الآن ان تنقرض ، ولقد ادركت الناس اذا مات الميت حضر المعزون الى المسجد المجاور لبيت المتوفى او مسجد يعينونه فيصلون العصر ويتناول الواحد منهم جزءاً من القرآن فيتلوه حتى اذان المغرب فيعزُّون اهل المتوفى ثم يصلون المغرب وينصرفون ثم تطورت هذه العادة فاصبحت تتم فى بيت المتوفى بين المغرب والعشاء وبنفس الطريقة التى وصفناها فيحضر المعزُّون ويمسك كل واحد منهم جزءا من المصحف يتلوه حتى يحين موعد صلاة العشاء فيعزُّون وينصرفون وقد تطورت هذه العادة الى ماهو متبع فى الوقت الحاضر من حضور الناس بعد صلاة

المغرب لفترة بسيطة يستمعون فيها الى تلاوة القرآن من المقرئين الذين يحضرهم اهل الميت ثم يعزُّون وينصرفون ، وكان هناك الى جانب الايام الثلاثة للتعزية يوم العشرين والاربعين والحوْل فاذا مضت عشرون يوما على وفاة الميت اقام له اهله ـ العشرين ـ ويحضر فى هذه الاثناء مقرىء واحد او اكثر من الصباح فيقرأ القرآن على روح الميت الى مابعد الظهر حيث يحضر المدعوون من خاصة اهل المتوفى واصدقائه فيستمعون الى التلاوة ويتناولون الطعام ويقرأون الفاتحة على روح الميت ويدعون له بالمغفرة وينصرفون وبنفس الترتيب يقيمون حفل الاربعين بعد مضى اربعين يوما على وفاة الميت ثم حفل الحوْل وهو بعد مضى عام كامل على الوفاة ، هذا علاوة على مايتلى له من القرآن فى شهر رمضان وكان يتولى هذه التلاوة صغار الاطفال ممن يحسنون القراءة والبعض كان يهتم بامر هذه التلاوة لا فى شهر رمضان وحده وانما فى رجب وشعبان كذلك قلنا وقد انتهت هذه العادات جميعها فلم يبق منها سوى ثلاثة ايام العزاء بين العشاءين ٠

نعود بعد هذا الاستطراد عن عادات الناس فى ايام الوفاة الى الشيخ احمد الزهراء فنقول انه كان من ابرز المقرئين فى مدينة جدة ولهذا كان منشغلا فى كثير من الايام بتلاوة القرآن فى المآتم وفى ايام العشرين والاربعين والحول كما اسلفنا وكان يتناول طعامه فى كثير من الايام فى البيوت التى يدعى اليها ، كما ان تلامذته كانوا يتحفونه بأطيب الطعام فى بعض الايام ويخدمونه ويقومون على تمريضه اذا مرض والله سبحانه وتعالى هو الذى يدبر الامور بحكمته فيسخر لهذا الرجل الكفيف البخيل من يقوم على اصلاح امره وتسيير شؤونه ٠

هذا وكان الشيخ كثير الوسواس فلم يكن على تمكنه من التجويد وحفظه للقرآن الكريم وحسن ترتيله بمستطيع ان يتولى الامامة فى المساجد وهى الوظيفة الطبيعية لامثاله ، لانه كان كثير الوسوسة وكنت اراه فى مسجد الشافعى وهو

ينوى للصلاة ـ صلاة النفل فاسمعه يقول الله الله الله اكبر وما هى الا ثوان ثم يعود لتكبيرة الاحرام بنفس الاسلوب السابق يكرر النطق بلفظ الجلالة مرات ومرات حتى يستفيم له الدخول فى الصلاة ، ولكن الرجل لم يكن بحاجة الى الامامة لان موارده من المآتم وتلاوة القرآن كانت كبيرة فى ذلك الزمان لاينفق منها شيئا وقد اخذ نفسه بهذه الحياة الضيقة الشديدة وقد تجمعت لديه ثروة كبيرة هيأت له ان يشترى ثلاثة بيوت من اشهر بيوت جدة اولها فى منطقة باب مكة مما يلى سوق البدو وكان يسكن فى جزء منه ويؤجر الاجزاء الباقية وهى كثيرة للمستأجرين ويتسلم الغلة فيضيفها الى مايكنزه من مال والبيتان الآخران وكان يطلق عليها اسم بيوت الشرايبى على ماذكر وهما يقعان الان فى قلب شارع الملك عبدالعزيز فى وسط شارع الاشراف بين شارع الملك عبدالعزيز والسوق

الكبير وكانت هذه المنطقة قبل تعمير شارع الملك عبدالعزيز تسمى باب الصبَّه وهو باب يؤدى الى البحر وكان هذا الباب من داخل سور مدينة جدة الموازى للبحر وكان هذا الباب فيه حرس للجمارك وتخرج منه العربات المحملة بالارزاق ولعل معنى الاسم انه الباب الذى تنصب منه البضائع الى المدينة او لعل له تعليلا آخر يعرفه المعمرون من اهل جدة او المهتمون بتاريخها .

لقد كان شراء الشيخ احمد الزهراء لهذه البيوت الكبيرة فى مدينة جدة حديث الناس فى ذلك الزمان فكانوا يعجبون لهذا المقرىء الاعمى الذى كان يجمع القرش الى القرش والريال الى الريال والدينار الى الدينار ثم يشترى البيوت الشهيرة التى تعرض للبيع ولست اشك ان كثيرا من التجار كانوا يرغبون فى شراء هذه البيوت او واحد منها على الاقل فجميعها تقع فى مناطق تجارية ولكن التجار كانوالايفكرون كثيرا فى شراء امثال هذه البيوت إذا لم تكن لهم حاجة ضرورية اليها لانها تجمِّد المال السائل الذى يتعاملون به فى تجاراتهم ولم يكن فى

البلاد بنك واحد حتى يتعامل معه الناس او يقترضوا منه وكانت العملة السائدة هى الجنيهات الذهبية بنوعيها العثمانى والانجليزى ثم الدينار الهاشمى والسعودى والريالات المجيدية اولا ثم الهاشمية والسعودية فيما بعد ولم تكن اوراق البنكنوت بالعملة الرائجة الا فى مواسم الحج يشتريها الصرافون من الحجاج حينما يقدمون ويبدلونها لهم بالعملة المحلية ثم يبيعونها للحجاج حينما يعودون الى بلادهم باسعار اقل ويستفيدون الفرق بين السعرين وكانت اغلب العملات التى ترد مع الحجاج عملات فضية كالروبيات الجاوية والهندية وقد رأيت التجار يشترون الروبيات الهندية خاصة ثم يصدرونها الى عدن او الى الهند وبعد ذلك كثر التعامل بأوراق البنكنوت فأصبح الناس يفضلون التعامل بها لأنها اخف حملا واسهل حفظا وباستثناء البنك العثمانى الذى افتتح فرعا له فى مدينة جده فى العهد الهاشمى ثم فى اوائل العهد السعودى ولم يستمر طويلا كان اول بنك اسس فى المملكة هو الشركة التجارية الهولندية وكان الصرافون يشترون العملات المختلفة ويبيعونها

له ويقوم هو بتصديرها الى الخارج عن طريق قسم الحوالات والطرود بالبريد فى ظروف كبيرة مختومة بالشمع الاحمر ومؤمن عليها ويزن الواحد منها ألفى غرام ·

نعود بعد هذا الاستطراد عن العملات الاجنبية فنقول ان شراء الشيخ احمد الزهراء لهذه البيوت كان حديث الناس والتجار منهم خاصة فى مدينة جدة لأن هذا المقرىء الاعمى استطاع ان يجمع هذا المال الكثير الذى يشترى به هذه البيوت الكبيرة فى مدينة جدة عبر سنوات طويلة من التقتير على نفسه والتضييق عليها ولكن المفاجأة العظمى التى فاجأ بها الشيخ احمد الزهراء الناس جميعا هى انه وهب هذه البيوت الثلاثة الى مدارس الفلاح وأوقفها عليها فختم الرجل حياته احسن ختام اذ تنازل عن ثروته الكبيرة التى جمعها خلال سنوات عمره الطويل من التضييق على نفسه لعمل من انبل الاعمال وأجلها فوهب ثمرة سعيه فى هذه

الحياة لتصرف على العلم والتعليم ممثلة فى مدارس الفلاح التى كانت رائدة التعليم فى ذلك الزمان وهكذا استحق الشيخ احمد الزهراء ان يسجل اسمه بين اعلام الرجال فى عصره بهذه الهبة العظيمة التى لم يقدم عليها أثرياء عصره فكان بها فريد العصر وواحد الزمان ٠

ولقد توفى الشيخ احمد الزهراء فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى عن عمر يناهز الثمانين عاما تغمده الله برحمته الواسعة وتقبل منه عمله الطيب العظيم ٠

احمد صالح قنديل

أحمد صالح قنديل

معتدل القامة اقرب الى القصر ، اسمر اللون شديد السمرة ، ممتلىء الجسم واسع العينين ، ذكي لماح ، خفيف الظل ، مرسل الشعر فى غير اسراف ، كان فى مطلع شبابه يرتدى الكوفية الحجازية والشال وهو ما يستعمل للاعتمام وكان من انواع كثيرة ترد من الشام وبعد ان التحق بوظائف الدولة اصبح يرتدى العباءة والعقال ، ولد بمدينة جدة فيما أقدر فى أواخر العشرينات او اوائل الثلاثينات من القرن الهجرى وتلقى تعليمه فى مدرسة الفلاح وبعد تخرجه منها عمل بها استاذا

وقد ادركته وهو استاذ بالمدرسة التحضيرية فى الفلاح ، والتى كانت تسمى المجتمع وهو البيت الذى انشأه المرحوم الحاج محمد على زينل مؤسس الفلاح ليكون مقرا للاجتماعات الخاصة بالمدرسة ثم تحول الى مدرسة تحضيرية تابعة لمدرسة الفلاح ، وهو منفصل عن مبانى الفلاح الحالية وقد تخرب فلم تمتد اليه يد الاصلاح واخشى ان يكون قد اندثر أو هو فى طريقه الى الاندثار ، ثم عمل استاذا بمدرسة الفلاح الكبرى واستمر يعمل فيها لسنوات طوال الى ان انتقل الى مكة رئيسا لتحرير جريدة صوت الحجاز عام ١٣٥٥ هـ بترشيح من صديقه

المرحوم الاستاذ حمزة شحاتة لدى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان رئيس الشركة العربية للطبع والنشر .

قنديل وحمزه شحاته

وكان الاستاذ احمد قنديل ينشر شعره فى صوت الحجاز بتوقيع الصموت الحساس وقد استرعى هذا التوقيع انتباه الاستاذ حمزة شحاتة فسألنى ان كنت اعرف هذا الشاعر الذى بدأت بواكيره الطيبة منذ القصائد الاولى التى نشرتها له صوت الحجاز فقلت انه الاستاذ احمد قنديل وهو مدرس بمدرسة الفلاح واعرفه منذ ان كنت تلميذا بها وكان هو فى الفصول الاخيرة ثم استاذا بالمدرسة المذكورة ، وطلب منى الاستاذ حمزة ان اجمعه بالقنديل بل واعرفه عليه وكان شحاتة يومها اديبا جهيرا وشخصية مرموقه فاتصلت بالقنديل رحمه الله واعربت له عن اعجاب الاستاذ حمزة بما ينشره من شعر وضربت له موعدا للاجتماع بالاستاذ حمزة فى ـ مربعة الجمجوم ـ وهو مبنى كان يومها خارج مدينة جدة بالعمارية قريبا من مقبرة حواء ، كان قد بناه المرحوم الشيخ محمد انيس جمجوم ، وكان هذا المبنى الخلوى الذى يسمى مربعة اشبه ما يكون بنادٍ يجتمع فيه آل جمجوم واصدقاؤهم عصر كل يوم وصدرا من الليل ، وكنت والاستاذ حمزة شحاتة من رواد هذا المجتمع الجمجومى كل اصيل ونحن جميعا فى مطلع الشباب فى اوائل الخمسينات من هذا القرن وقد استمرت صلة القنديل بالاستاذ شحاته منذ ذلك الوقت والى ان توفى الاستاذ حمزة شحاتة باستثناء فترة ليست بالطويلة حدث بينهما من الجفوة ما اوقف هذه الصلة ولكن هذا التوقف لم يستمر فعادت صلتهما الى ما كانت عليه من قبل يرحمهما الله .

البواكير الأولى

لقد ذكرت ان بواكير شعر القنديل الاولى فى الخمسينات كانت تبشر بميلاد شاعر كبير وأود ان اذكر ان اغلب من عرفت من الشعراء والكتاب الموهوبين كانت بواكيرهم الاولى تنبىء عن نهاياتهم العظيمة ، ولعل الشاعر أو الكاتب الاصيل تولد معه الموهبة فاذا استطاع التعبير ظهرت بذور هذه الموهبة فى بواكيره الاولى وما تلبث هذه الموهبة ان تتمكن وتتجلى بالدراسة والتجاريب ٠

عود على بدء

نعود بعد هذا الاستطراد الى ترجمة حياة الاستاذ قنديل فنقول انه عمل رئيسا لتحرير صوت الحجاز وانتقل بعمله هذا الى مكة المكرمة وكانت فترة رئاسة تحرير القنديل لصوت الحجاز من الفترات الخصيبة فى تاريخها فقد افسح صدر الجريدة لمقالات الكتاب وقصائد الشعراء كما انه عين المرحوم الاستاذ عبدالله المزروع ـ والد الدكتور المزروع ـ مخبرا صحفيا يوافيه بالأخبار الداخلية وخاصة الاخبار الحكومية وخلال رئاسته لصوت الحجاز نظم قصائده الأولى من الشعر (الحلمنتيشى)وهو الشعر الذى تختلط فيه العربية بالعامية وكانت صحيفة صوت الحجاز مجال النشر لقصائده الاولى من هذا الشعر وقد استمر القنديل رئيسا لتحرير صوت الحجاز من ٤ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ إلى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ هـ وقد أقصى عن صوت الحجاز بعد أن نشر قصيدة أسيىء تفسيرها بتوقيع رمزى وحملها المرحوم الدكتور محمد على الشواف الى صاحب السمو الملكى الامير فيصل النائب العام لجلالة الملك ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وقد اصدر سموه امره بإيقاف الشاعر واقصائه عن الجريدة ثم تبين ان الشاعر هو رئيس

التحرير نفسه ولم تمض ايام طويلة حتى فاء سموه الى الرضا وأفرج عنه فعاد الى مدينة جدة مسقط رأسه مرة اخرى وعمل فترة فى مكتب رئيس وكلاء مطوفى الجاوه ـ الأندنوسيين ـ الشيخ محمد نور جوخدار رحمه الله ثم انتقل مرة اخرى للعمل فى مكة المكرمة فى ديوان التحرير بوزارة المالية زميلا للاساتذة عبدالوهاب آشى ومحمد حسن فقى ومحمد حسن كتبى ثم عين رئيسا لمصلحة املاك الدولة بوزارة بالمالية وكانت تتخلل مابين هذه الوظائف فترات تعطل ثم عين اخيرا مديرا لادارة الحج بجدة فى اول تأسيسها وكان اول مدير عام للحج هو الشيخ محمد صالح قزاز مد الله فى عمره وكان مركزه فى مكة المكرمة وبعد انتداب الشيخ محمد صالح قزاز للعمل فى توسعة الحرم المدنى لانتقاله الى المدينة المنورة ٠٠ اصبح الاستاذ احمد قنديل مديرا عاما لادارة الحج بجدة ثم احيل الى التقاعد وهاجر الى مصر لبضع سنوات افتتح خلالها مكتبا تجاريا له بالاشتراك مع الاستاذ رشاد برنجى واحد اصدقائهما من المصريين ثم عاد مرة اخرى الى الحجاز وما لبث ان هاجر مرة اخرى الى بيروت ، وفى بيروت تفرغ للانتاج الفنى للاذاعة والتليفزيون وعكف على طبع مؤلفاته عن جدة ودواوينه الشعرية الكثيرة وبعد ان اندلعت الحرب الاهلية فى بيروت عاد مرة اخرى الى جده وكان يسافر بين الفينة والاخرى الى القاهرة لموالاة اعماله الفنية سواء فى طبع مؤلفاته او لعرض اعماله الفنية فى الاذاعة والتليفزيون الى ان توفاه الله تعالى وهو يكتب الحلقة الاخيرة من قناديل رمضان لعام ١٣٩٩ هـ فى صباح الجمعة ١٢ شعبان ١٣٩٩ هـ

الشعر الضاحك

تميز الاستاذ احمد قنديل رحمه الله الى جانب ابداعه الشعرى ومكانته فى الكتابة والادب بشعره الضاحك الذى كان ينشر مقطوعة منه كل صباح فى

جريدة البلاد اولا ثم فى جريدة عكاظ تحت عنوان (قناديل)، ثم اصبح يستعمل هذا النوع الضاحك ولكن فى اسلوب نثرى وكان ينشر فى الاعوام الأخيرة فى جريدة البلاد بعنوان قناديل ملونة وهذه القناديل الشعرية خاصة كانت سبب شهرته على المستوى الشعبى وقد خلقت منه شاعرا شعبيا محبوبا يتحدث عنه الناس فى طول البلاد وعرضها كما خلقت له قراء كثيرين يتابعون ما ينشر له فى كل يوم ويتفكهون به ويتحدثون عنه فى مجالسهم ومنتدياتهم وللتـاريخ فانـى سأورد هنا بداية القنديل فى هذا الشعر الضاحك فأقول ٠

الأُسْتَاذ حُسين شفيق المصري ومجلّة الفكاهة

كانت دار الهلال فى القاهرة تصدر مجلة اسبوعية اسمها (الفكاهة) وهى مجلة فكاهية كما يدل عليه اسمها وكان يتولى رئاسة تحريرها الاستاذ حسين شفيق المصرى وهو شاعر مجيد وزجال مصرى معروف ، وكان الاستاذ حسين شفيق فيما اعرف هو اول من نشر الشعر الضاحك فى اسلوب عامى ولكن هذا الشعر العامى كان يحتفظ بالوزن والقافيه ، وكانت الطريقة انه يفتتح القصيدة بمطلع قصيدة من عيون الشعر العربى القديم ثم ينسج على منوالها كلاما موزونا مقفىً تختلط فيه العامية بالعربية الفصحى وكانت مواضيع هذا الشعر دائما انتقادية ولكنها فى اسلوب فكاهى مقبول ، وكنا نجتمع فى مكة المكرمة الاستاذ حمزة شحاته وأحمد قنديل رحمهما الله وانا وكان الوقت صيفا وكنا نهرب من حر مكة اللاهب الى اطراف الشهداء وكان فى موضع مكاتب وقراج الشركة العربية للسيارات بالزاهر مقهى لرجل اسمه العم حمزة وكان العمران فى مكة ينتهى عند قشلة جرول وكانت الارض بعدها خلاء وكنا نجىء الى هذا المقهى مع الغروب ونتسامر صدرا من الليل ونتناول عشاء خفيفا ثم يأوى كل منا الى فراشه الذى كان يحفظ فى

داخل المقهى والذى يحضره لنا العم حمزة مع ابتداء الظلمة وكنا نتخذ من كراسى المقهى العادية الطويلة سررا ننام عليها تحت السماء ، وذات ليلة جاء ذكر هذا الشعر الفكاهى ، وكان حسين شفيق المصرى يطلق عليه اسم الشعر (الحلمنتيشى) نقول جاء ذكر هذا الشعر (الحلمنتيشى) فسأل الاستاذ شحاته الأستاذ قنديل ان كان يستطيع النظم على هذا النسق فاجابه بالايجاب وفى اليوم التالى بدأت المحاولات الأولى للقنديل فى هذا الشعر وكانت موفقة جدا وما هى الا فترة بسيطة حتى بدأ القنديل فى نشرها فى صوت الحجاز فترة بعد اخرى ووجدت صدى شعبيا واسعا واستقبالا حسنا من جميع القراء خاصة وان (قنديل) رحمه الله تحاشى العامية المصرية التى كان يستعملها حسين شفيق المصرى ولجأ الى العامية الحجازية ثم توسع فيها وخلطها بالعامية النجدية فيما بعد ومن هذه القصائد التى لاتزال عالقة بالذاكرة مانشره القنديل فى صوت الحجاز والمطلع لقصيدة مشهورة لابن الفارض :

غيرى على السلوان قادر وسواى فى العشاق غادر

لى فى الصباح فطيرة والبيض أليق بالفطائر

وهناك قصيدة اخرى والمطلع كذلك لشاعر قديم :

صاح فى العاشقين يالكنانه رشأٌ فى الفؤاد منه كنانه

شمرقىٌّ مكحل ومُحَنّى حامل فى يمينه خيزرانه

هذه هى البدايات الاولى لهذا الشعر الضاحك وكانت القصيدة تنشر طويلة وليست مقطوعة صغيرة كما صارت اليه القناديل اخيرا ولكن النشر لم يكن يوميا كما هو الحال مع القناديل اليومية وانما كان اسبوعيا او اكثر من اسبوعى وآخر ما

نظمه قنديل فى هذا المجال الغزاوية الأخيرة وهى قصيدة القاها فى الجلسة الختامية للمؤتمر الأول للأدباء السعوديين وصف فيها الادباء القدامى والمحدثين ودعا فيها الى تكريم شيخ شعراء مكة الاستاذ احمد ابراهيم الغزاوى مدّ الله فى حياته وقد قوبلت بالاستحسان وقوطعت بالتصفيق وهى تمثل شعر قنديل الضاحك وقد نشرت بالمجلد الاول عن بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين كاملة فليرجع اليها من رغب الاطلاع عليها ٠

حمزة شحاته والشعر الضاحك

ولعل معظم القراء بل والأدباء لايعرفون ان المرحوم الاستاذ حمزة شحاتة كان ينظم هذا الشعر ولكنه لم يستمر عليه وإنما نظمه مرة واحدة او مرتين وله قصيدة جميلة اذكر بعض ابياتها فيا بعد وهذه القصيدة لها قصة لابأس من ايرادها فقد عُلم ان العراق سيرسل بعثة كشافة الى المدينة المنورة ومكة المكرمة ولعل ذلك فى زمن الحج وارادت الحكومة ان تكرم كشافة العراق فاعدت لهم برنامجا حافلا كان من ضمنه إقامة حفل تكريم لهم فى جدة وتولى الاخ الشيخ محمد عبدالله رضا يومها امر ترتيب هذا الحفل الشعبى فارسل دعوة إلى شباب مدينة جدة للحضور إلى منزله ودعاهم للتبرع لإقامة هذا الحفل ولكن المرحوم حمزة شحاته لم يدع الى هذا الاجتماع مع اننا كنا جميعا على علم بالحفل الذى كان سيقام فى بيت نصيف وكان صديقنا المرحوم الاستاذ حسين محمد نصيف ـ مؤلف كتاب ماضى الحجاز وحاضره ـ يخبرنا يوميا عن هذا الحفل ويحثنا على الحضور فيه وغضب حمزة لعدم دعوته من قبل الشيخ محمد عبدالله رضا فانشأ قصيدة ضاحكة صور فيها ما وقع من المجتمعين للتبرع فى اسلوب ضاحك جميل والقصيدة اخذ مطلعها من قصيدة ابى تمام الشهيرة :

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب ويضرب سيف الله أيان تضرب
وبالامس قد ارسلت حِثَّة دعوة الى فتية بالصالحات تحزبوا
فلم تك الا ساعةً او دقيقةً تجازوا سراعاً بعدها وتكركبوا

ومنها يصف ملابسات التبرعات :

فجاء فتى منهم جريء حَجَنْجَلُ فجاد بربع ريال فانبروا وتعجبوا
وقال استحي ياسي فلانٍ فانه قليلُ ومن يكتب قليلا يُؤَنَبَّ
فقال لهم ليش نسبتى تقتضى كدا ؟ فان راقكم قولى والاَّ فأحسِبُوا
فبان حماسٌ فوقَ وَجْه زعيمهم فسجَّل عشريناً وقد كاد يغضب

والقصة ان المرحوم الاستاذ محمد لارى ـ والد الاستاذ رضا محمد لارى ـ كان من ضمن من حضروا الاجتماع فجاد بربع ريال فقال المجتمعون انه قليل فقال لهم انه ليس قليلا بالنسبة لما تبرع به الشيخ محمد رضا فتحمسً الداعى وسجل عشرين ريالا اخرى وسواء اكانت القصة حقيقيةً ام من خيال الاستاذ حمزة شحاتة رحمه الله ، واغلب الظن انها حقيقة فان محمد لارى كان معروفا بالجرأة ، فان ايرادها على هذا النحو فى هذا الشعر الضاحك كان مناسبة يتفكه بها مجتمع الشباب بل مجتمع جدة كلها فكاهة تخلو من الحرج والبذاء ·

عَودَةُ القَنادِيل

نعود بعد هذا الاستطراد الى القناديل التى توسع فيها الاستاذ احمد قنديل وطورها الى ان صارت الى ما يعرفه جميع القراء فنقول ان الاسلوب الذى بدأ به قنديل هذا الشعر الضاحك ربما كان احبَّ الى الادباء من القراء لانه لم يسرف فى استعمال اللفظ العامى كما هو الحال بالنسبة للقناديل ولكن جوهر الفكرة واحد وهو النقد الاجتماعى واذكر ان قنديلا رحمه الله اراد ان يصدر المجموعة الاولى من

شعره الاصيل فعهد الى الاستاذ حمزة شحاتة رحمه الله ان يكتب مقدمة لهذه المجموعة ، كما انه حينما اراد اصدار المجموعة الاولى من شعره الفكاهى طلب منى كتابة مقدمة لها واذكر انى كتبت فى تقديم هذه المجموعة ولعل اسمها المركاز مامعناه :-

« اذا كان هذا الشعر الفكاهى لايدخل التاريخ من باب الأدب والشعر فانه يدخل التاريخ من اوسع ابوابه كفنٍ يصور الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد فى اسلوب ساخر ضاحك فهو يتحدث عن امور يعانى منها كل فرد ـ ولا تخلو حياة أى مجتمع من المعاناة ـ مما يتصل بحياته اليومية فى مختلف وجوه هذه الحياة فى داخل المنزل ، او فى خارجه فى السوق ، فى المدرسة ، وفى الدائرة الحكومية ، فى البيع والشراء ، فى السفر والاقامة ، فى متطلبات الحياة اليومية ومشاكلها ، وسيعود المؤرخون الى هذا الشعر الساخر ليجدوا فيه مادة تصف الحياة بل تصف كثيرا من دقائقها وادوائها مما ينطوى مع الزمن ويتغير مع الايام » انتهى معنى ما كتبته لهذه المقدمة التى لم يكتب لها النشر فقد عدل قنديل رحمه الله عن نشر الكتابين بالمقدمات التى طلب من اصدقائه كتابتها وعلمت انه فضَّل ان يقابل القراءُ مؤلفاته دون تقديم وهو رأى له وجاهته على اى حال .

اقول ان هذا الذى كتبته عن هذا الشعر قبل اربعين عاما لايزال يمثل رأيى فى هذا الشعر او هذا الفن على الاصح فان هذا الشعر العامى لايمكن ان يدخل التاريخ كشعر رفيع ولكنه يدخل من اوسع ابواب التاريخ كفن يمثل الحياة الاجتماعية ومشاكلها وكفن يمثل النقد الفنى للحياة اذا جاز هذا الوصف وما تحفل به من مفارقات ومشكلات ، وقنديل غنيٌ بشعره المبدع الاصيل وبفنه الرائع الذى يتجلى فى مؤلفاته الشعرية الكثيرة عن اضافة هذه القناديل الى شعره

الاصيل ، انها فن مستقل يمثل الناحية الشعبية فى قنديل والتى سنتحدث عنها فيما يلى ٠

شعبية أحمد قنديل

الاستاذ احمد قنديل رحمه الله كان شعبيا بالمعنى الدقيق للكلمة او ابن بلد كما يقول العامة من الناس ولا غرو فى ذلك فقد ولد فى بيئة شعبية وبيت قنديل الذى ولد ونشأ فيه فى العلوى من محلة اليمن ـ كان من منازل جدة القديمة وكان آل قنديل جميعا يسكنون فيه وكان قنديل رحمه الله يسميه القرية لكثرة من يسكنه من آل قنديل والبيت يقع فى قلب حى شعبى مشهور يحيط به سوق العلوى المشهور والمؤدى الى باب مكة وتحف به بيوت شعبية للطبقة الوسطى من المجتمع التى عاش قنديل بينها والتى عبر عنها فى شعره الفكاهى أصدق وأجمل تعبير ـ ولقد كان ابوه الشيخ صالح قنديل رحمه الله مدرسا للقرآن فى الصفوف الاولى من مدرسة الفلاح كما كان من اشهر المقرئين والمأذونين وكان رجلا ظريفا سريع النكتة حاضر البديهة أنيس المجلس وقد اخذ عنه ابنه قنديل هذا الظرف ، كما ان شقيقه الاكبر يوسف قنديل كان ظريفا عفويا فى كلامه وتصرفاته وكان محبوبا من اصدقائه الكثيرين وقد نشأ قنديل فى هذه البيئة الضاحكة وكان اتصاله بالصحف والكتابة فيها وانتقاله الى مكة احدث له شهرة فى هذه البيئة الشعبية فكان الجميع يطلقون عليه لقب الاستاذ ، فاذا قيل الاستاذ فهو احمد قنديل وهو عند اصدقائه الخُلّص ـ قنديل وكفى ـ وقد احتفظ قنديل بشعبيته هذه طيلة حياته واتخذ منها مادة لفنه الشعرى الضاحك وهذه الشعبية تتجلى فى كل شىء فى وصف المكان والزمان واللهجة الخاصة الشعبية واصطلاحاتها والمقارنة بينها وبين الحاضر ، وبين يدى الآن قصيدته الغزاوية

التى اسلفت الحديث عنها انقل منها بعض الابيات فهى ابلغ فى وصف هذه المادة الشعبية من كل تعبير :

وقـد تعجـب من حالى بلا سبب ... البـاب والعقـب والروشـان والقفف
كما تطلّـع نحـوى زاغـرا ابدا ... فى سقفه القندل المرصوص والحَصفُ

ومنها :

وكل تمشيتـى ـ بولطـا ـ أقـوم بها ... فوق السطوح يوازينـى بهـا الطنف

ومنها :

بردان ففضفت من ظهرى وفى ركبى ... شىء اذا غزهـا من جلستـى اقف

وليس هذا مجال الاطالة فى الاقتباس فان كل ابيات هذا الشعر الضاحك تمثل الشعبية الصميمة التى تتجلى فى كل كلماته ومقاطعه ٠

شعر الأفراح

ولعل القراء لا يعرفون ان « قنديلا » كان ينظم الشعر للمنشدين الذين جرت العاده بحضورهم احتفالات العرس ،فكانوا جميعا يلجأون اليه لينظم لهم الشعر الذى يلقونه فى هذه الحفلات والذى يجب ان يتضمن اسم العريس واسم آل العروسين والذى يلقى حين خروج العريس من داره بصحبة المأذون والرجال الذين يصاحبونه فيقف المنشد ويحييه ويهنئه بما هو مقدم عليه ، فإذا وصل الموكب الى دار العروس وقف الجميع فى فناء الدار وألقى المنشد مقطوعة اخرى يحيى فيها العريس ولابد من تحية اهل العروس كذلك بذكر اسم اسرتهم واسم اسرة العريس ، وبعد انتهاء حفل العقد يلقى المنشد تحيته الاخيرة للعروسين وآلهما وكان المنشدون فى جدة يلجأون وخاصة فى حفلات العرس الكبيرة الى قنديل

رحمه الله فينظم لهم المقطوعات المطلوبة من الشعر الفصيح متضمنة اسم العريس واسماء آل العروسين ولم يكن يتقاضى منهم مقابل ذلك شيئا وانما يفعله بدافع من صداقته لهم وهذه العادة لاتزال باقية الى اليوم ولكنها فى نطاق ضيق جدا وفى بعض الأعراس الكبيرة التى يحرص اصحابها على احياء هذه العادات القديمة ٠

القناديـل وَالنِقـد

يتميز شعر القناديل بالنقد الساخر وهو النقد لأوجه الحياة اليومية التى يعانى منها الناس ولايملكون شيئا لتغييرها أو إصلاحها والقارىء اليومى للقناديل كان يرى فيها تعبيرا عما يشعر به او يشكو منه ولكن فى اسلوب ضاحك ساخر ولهذالقيت نجاحا على المستوى الشعبى لأنها كانت تعبيرا واقعيا عن الحياة اليومية فى اسلوب ساخر ينفس به الناس عن شعورهم ازاء مايحسون به من ضيق وقد شمل هذا التعبير كل اوجه الحياة ـ تعطيل المعاملات ، زحمة المرور ، تعطيل الكهرباء ، انقطاع الماء ، غلاء الاسعار ، تخريب الشوارع ، كثرة الاجانب ـ وقل ما شئت من مظاهر الحياة اليومية فستجدها واردة فى القناديل ولهذا احبها الناس وقرأوها وتحدثوا عنها فى كل يوم وهذه القناديل او هذا الفن الضاحك هو ما امتاز به قنديل من بين أدباء جيله فكان له هذا الصدى الشعبى الواسع الذى جعله بحق اديباً شعبيا راسخ القدم ، ثابت البنيان وكان اذا القى قصيدة من شعره الضاحك قوبلت بالاستعادة والاستحسان والتصفيق وعلى ذكر الالقاء اذكر هنا ان « قنديلا » رحمه الله فى بدء حياته الادبيه لم يكن يرغب فى القاء شعره ويفضل ان يلقيه غيره ممن يحسنون الالقاء او ممن اشتهروا بذلك ولكنه ما لبث ان اكتشف فى نفسه موهبة الالقاء ولذلك قصة نذكرها للتاريخ ٠

قنديل وإلقاء الشعر

أقامت السفارة اللبنانية فى جدة حفل تكريم لمعالى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان قدم له فيها القائم بأعمال السفارة اللبنانية السيد أسعد الأسعد فى ذلك الوقت ، الأمين المساعد للجامعة العربية حاليا ـ قدم له فيها وسام الأرزمن درجة فارس على ما أذكر وطلب منى المرحوم الشيخ محمد سرور إلقاء كلمة الشكر نيابة عنه ، وحضر قنديل رحمه الله وقد اكتمل المدعوون وبدأت فقرات الحفل بخطاب السيد أسعد الأسعد فوقف إلى جانبى وقال لقد أعددت قصيدة لهذه المناسبة وأريدك أن تلقيها نيابة عنى قلت أنى سألقى كلمة الشكر نيابة عن الشيخ محمد سرور وقال وما العمل قلت قصيدتك أنت ولا يلقيها غيرك ٠

وهكذا كان وقد قوبلت القصيدة يومها أحسن استقبال وانطلق بعدها قنديل يلقى شعره بنفسه وهو خير من يلقيه بلا مراء ٠

قنديل الشاعر

لقد أطلنا الحديث عن فن قنديل الضاحك الذى تختلط فيه العامية بالفصحى والذى تحول إلى القناديل اليومية وآن لنا أن نتحدث قليلا عن أحمد قنديل الشاعر العربى الأصيل ٠

أحمد قنديل شاعر مبدع ظهر إبداعه من القصائد الأولى والتى نشرت له فى صوت الحجاز فى الخمسينات وقد نظم فى جميع فنون الشعر شعرا جيدا موزونا وتميز عن كثير من أدباء جيله بأنه كان يوالى النظم والكتابة كما يوالى النشر إما فى الصحف أو فى دواوين خاصة بكل مجموعة شعرية وأمامى الأن خمس من

مجموعات هذا الشعر هى : اللوحات ، أوراقى الصفراء ، شمعتى تكفى ، قاطع الطريق ، الراعى والمطر ، ولاشك أن له مجموعات أخرى لم أذكرها وليست هذه الترجمة دراسة لشعر أحمد قنديل وإنما هى تصوير لحياته التى تميزت بالشعر فليس الاستقصاء من متطلبات هذه الترجمة وإنما هو مطلب الدراسة الكاملة لشعر أحمد قنديل وعطائه وسأورد بعض أبيات من هذه المجموعات دون اختيار للتعبير عن مكانته فى الشعر الأصيل ..

« أيها العاشق لاقى ما لقينا واصطبر
نحن كنا آية فى الحب تتلى فى حذر
يوم عشنا خفقة فى القلب رنَّتْ كوتر
إنما اليوم غدونا مثلما شاء القدر »

ويقول فى قصيدة أخرى :ـ

ودعت أيام الشباب تفيأت ... زهراتها ظل الشباب الأملد
رفرافة الأوراق حيتها الصّبا ... باللمس بين تَوُجّدٍ وتَوَدّدِ
ممتدة الأعراض طاب غراسها ... فى السفح فى الأغوار لم تتأبد
رفَّتْ على الأغصان نافحة الشذى ... سفرا تنهد بغية المتنهد

والقارىء لمجموعات القنديل الشعرية يجدها حافلة بالصور فياضة بوهج العاطفة التى هى جوهر الشعر كله وبعض مجموعات القنديل تمثل موضوعات معينة مثل الراعى والمطر وقاطع الطريق ولا شك أن هذا العطاء الكثير ليستحق دراسة جادة شاملة متأنية تضع القنديل فى مكانه الصحيح لا بين شعراء المملكة فحسب وإنما بين شعراء العرب جميعا فى هذا العصر .

مكة المكرمة في الشعر

لقنديل قصائد شعرية فى مدينة جدة ومكة والمدينة بل وحتى فى سويسرا حينما زارها لأول مرة وقد كان يعمل قبل وفاته يرحمه الله على إصدار كتاب عن كل ما قال شعراء المملكة فى مكة المكرمة وقد زارنى وطلب منى موافاته بما لدى فى هذا المجال فبعثت إليه بعض ماعندى ولست أعرف أنِ هذا الكتاب قد طبع وربما كان تحت الطبع أو مازال مخطوطا بين أوراقه فقد علمت منه أن الكتاب قد اكتمل فحبذا لو عمل أبناؤه الأساتذة أمل وسمير على استخراج مخطوط كتاب مكة ونشره أو الأتفاق مع أحد النوادى الأدبية على إصداره وأنا على ثقة من أن جميع النوادى الأدبية ترحب بالمساهمة فى مثل هذا الأمر ٠

كتاب قنديل عن جدة

وللقنديل كتابان عن جدة مزينان بالصور وهو من الشعر الضاحكك الذى تختلط فيه العامية بالفصحى وهو يصف جدة الجديدة ويقارن بينها وبين جدة القديمة كما أن له كتابا آخر عن ذكريات طفولته وشبابه وهو يجمع بين هذا الشعر الضاحك والنثر يصور فيه بعض الشخصيات الشعبية التى صاحبت طفولته وشبابه كما يصور بعض الحكايات الشعبية فى أسلوب يجمع بين العامية والفصحى وهذه الكتب جميعها تصور شعبية القنديل التى تحدثنا عنها فى صدر هذه الترجمة بإسهاب ٠

(١) وللقنديل كتاب آخر ظهر بعد وفاته اسمه (الجبل الذى صار سهلا) وقد قامت بنشره ادارة النشر بمؤسسة تهامة وهو يمثل (قنديل) متحدثا اكثر مما يمثله كاتبا ولكن الكتاب فى حد ذاته تسجيل فريد لذكريات القنديل فى شبابه وهو مما يدخل فى باب التراث ٠

شعر الملاحم

ولقنديل إلى جانب هذا الشعر الضاحك والمجموعات الشعرية الأصيلة التى تحدثنا عنها ملحمة شعرية عظيمة نشرت كاملة فى المجلد الأول من بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين تصل إلى ما يقارب الألف بيت من الشعر استعرض فيها سيرة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم وتاريخ الجزيرة العربية وهى من أطول ما أنتج القنديل من الشعر وهى تدل على اطلاع واسع وتمكن فى النظم والتصوير •

إنتاجه للإذاعة والتلفزيون

كما أن للقنديل إنتاجا وافرا كان يبثه التليفزيون السعودى وخاصة فى شهر رمضان من كل عام تحت عنوان « قناديل رمضان » وكان هذا الانتاج فى معظمه يلقى ترحيبا شعبيا واسعا لأنه تصوير لعادات الشعب وحياته •

لقد كان قنديل وفيا للقلم ، حفيا بالفن ، معطاء لا تفتر حماسته للكتابة والشعر وقد صور نفسه أصدق تصوير حين قال من قصيدة قديمة :

صناعتى فى الورى الكلامُ ☆ به أحيا وحرفتى الأدب

وقد استمر فى تقديم انتاجه للصحف ولوسائل الاعلام وللطباعة خمسين عاما دون توقف وحين أدركته الوفاة كان يكتب الحلقة الأخيرة من « قناديل رمضان » كما ذكرت فى صدر هذه الترجمة فقضى والقلم فى يده وكانت وفاته صباح يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شعبان ١٣٩٩ هـ وقد تركت وفاته رنة حزن عميق وشارك الناس جميعا فى عزاء أبنائه وأفراد أسرته وقامت بلدية جدة مشكورة

باطلاق اسمه على الشارع المؤدى الى منزله بجدة وهو تكريم يستحقه بلا مراء وشارك الأدباء والشعراء فى رثائه ، رحمه الله رحمة واسعة فقد كان من الشعب وإلى الشعب لسانا معبرا ناطقا وشعرا مصورا سائرا يصور حياة الناس اليومية ويعبر عن آمالهم وأحلامهم • غفر الله له وأحسن جزاءه فى دار الخلود ••

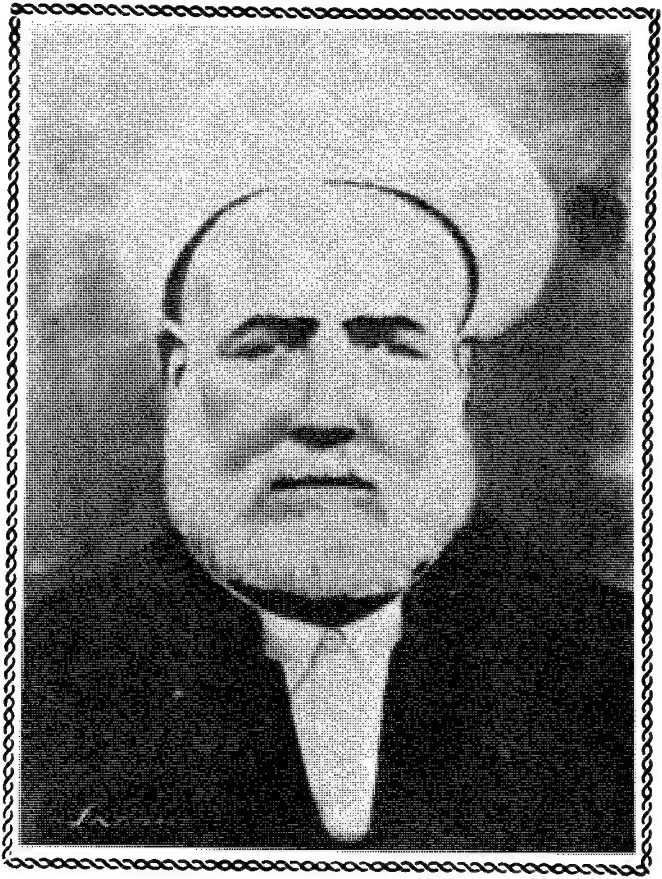

الحاج زينل علي رضا

الحاج زينل علي رضا

قصير القامة أبيض اللون تشوب بياضه حمرة ، تزين وجهه لحية بيضاء متكاملة ونظرة رقيقة حانية وكان دائما يرتدى البياض فتراه فى لباسه الأبيض من الكتان وقد وضع العمامة الحجازية على رأسه فتطالعك صورة رجل وقور الا أنك تشعر أن هذه الصورة تفيض حنوا وحبا ، وقد أدركته فى الأربعينات قبل دخول السيارات إلى البلاد وهو يمتطى صهوة حصان أحمر اللون ـ ولقد كان كبراء جدة جميعا يستعملون الخيل فى تنقلاتهم فى العهد العثمانى والعهد الهاشمى ـ حيث لم تكن السيارات قد وصلت إلى البلاد أو على الأصح لم يكن يسمح بدخولها الشريف الملك الحسين بن على كما أسلفنا فى حلقات سابقة من هذه التراجم وكان لهؤلاء الكبراء اسطبلات للخيل وسواس يرعونها ولقد أدركت هذا العهد الذى ظل سائدا فى مدينة جدة إلى أن بدأ العهد السعودى فسمح بدخول السيارات وتألفت شركات خاصة وعامة لها بعد ذلك ٠

نعود بعد هذا إلى الحاج زينل على رضا فنقول إنه كان من أكبر تجار جدة وقد أسس مع شقيقه الأصغر الحاج عبدالله على رضا قائممقام جدة الأسبق بيتهم التجارى فى مدينة جدة ثم فى بومباى ، وكان الحاج عبدالله هو المدير الفعلى لهذا البيت التجارى فى الوقت الذى كان فيه الحاج زينل يكبره فى السن ٠

إن ما يلفت النظر فى سيرة الحاج زينل ليس ثراؤه وتجارته فما أكثر التجار وأصحاب الثراء ولكن ما عرف عنه من البذل الكثير وخاصة للفقراء والمساكين ، لقد رأيت الحاج زينل والمساكين يحيطون به فى مسجد المعمار كلما ذهب لأداء الصلاة ويلتفون حوله وهو خارج من داره سواء للمسجد أو لزيارة بعض أصدقائه ، فيقف لهم باسما ويمنحهم الأعطيات ، ولم يكن يظهر عليه التأفف أو الضيق وهم يعانقونه ويتوددون إليه ، بل كثيرا ما رأيتهم يوقفونه فى الطريق ويدلون إليه بحاجاتهم فلا يجدون إلا يداً سخية ووجهاً باشا وكلاما حسنا ، وهذه الصفات لا تدل على الكرم المطبوع فحسب وإنما تدل على أن نفس الرجل قد اشربت حب الخير والعطف على المحتاجين فبذل لهم من نفسه كما بذل لهم من ماله ورفده •

وخلال الحرب السعودية الهاشمية كانت مدينة جدة محاطة بالأسلاك الشائكة وكان السلطان عبدالعزيز يعسكر بجيشه فى الرغامة وكانت المدينة تعانى من الحصار ، كما أن واردات جدة من البضائع قد تأثرت بسبب حالة الحرب أقول فى تلك الأيام كان الحاج زينل على رضا يتولى ذبح الذبائح وطبخ الطعام من الأرز ليطعم هؤلاء الفقراء والمساكين وكنت أراه وهو يقف بنفسه أمام القدور العظيمة التى يطهى فيها الطعام وينظر إلى الطاعمين فى بشاشة ولطف وإيناس ، كما رأيته وهو يأمر باخراج بالات السليطى ـ قماش من القطن نباتى اللون تستعمله البادية فى الثياب ـ فتوزع على هولاء الفقراء ثيابا تكسو أجسادهم وتدخل السعادة إلى قلوبهم ولقد اشتهر الحاج زينل رحمه الله بحبه للفقراء وحدبه عليهم حتى لقب بأبى المساكين •

وَالِـد مُؤَسِّس الفَـلاح

ولعل من المهم هنا أن نذكر أن الحاج محمد على زينل مؤسس مدارس الفلاح الشهيرة والعظيمة هو الابن الأكبر للحاج زينل رحمهما الله فكأنَّ حب الخير الذى تأصل فى نفس الحاج زينل قد انتقل إلى ابنه البكر الحاج محمد على فقام بعمله العظيم الخالد فى إنشاء مدارس الفلاح والإنفاق عليها طيلة ما يقرب من أربعين عاما فكانت حسنة عظيمة وصدقة جارية فكان هذا الشبل من ذاك الأسد • ولقد كان الحاج زينل يرغب أن يرى ابنه محمد على وهو يعمل فى بيته التجارى ليكون امتدادا لاسمه وعمله ولكن فكرة نشر العلم التى استأثرت بجهود محمد على صرفته عن العمل فى ظل أبيه فانفرد بعمله الخاص فى تجارة اللؤلؤ ، وقرت عين الحاج زينل بابنه محمد على وهو من أعظم الرجال ثراء وإن كان يستعمل هذا الثراء فى تعليم أبناء الأمة وإعدادهم رجالا للبلاد ، ولا شك أن الله تعالى اختار لكليهما ما هو خير فليس أسعد من أن يرى الانسان ابنه وقد شق طريقه فى الحياة وأثمر سعيه وتهيأت له أسباب النجاح فظهر اسمه ولمع نجمه •

ولقد رأى الحاج زينل ذلك فى ابنه محمد على كأحسن ما يمكن أن يرى أب فى أبنائه وهذا هو صنع الله العلى القدير لمن شاء من عباده وحكمته البالغة فى التدبير والتقدير •

وَفَـاة الحَـاج زيـنل

هذا ولقد توفى الحاج زينل على رضا عام ١٣٤٨ هـ بمدينة جدة عن عمر يناهز الرابعة والثمانين من العمر إذ كانت ولادته عام ١٢٦٥ هـ واشترك أهل

جدة كلهم فى تشييعه والصلاة على جثمانه ، وكان أبرز ما رؤى فى هذه الجنازة بكاء الفقراء وعويلهم على الفقيد الراحل ومزاحمتهم الأعيان والأثرياء فى حمل جثمانه والصلاة عليه ، تغمده الله برحمته الواسعة فلقد كان مثلا فى البر بالفقراء والمساكين .

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

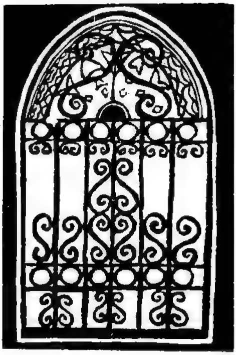

الشيخ ضياء الدين حمزة رجب

الشيخ ضياء الدين حمزة رجب

مستدير الوجه واسع العينين عظيم الأنف ، حنطى اللون معتدل القامة أقرب إلى الامتلاء خفيف اللحية حليق الشارب والعارضين ، يتخذ زيّ العلماء السلفيين فيرتدى العباءة والغترة ولا يضع على رأسه عقالا وقد تمسك بهذا الزي طيلة حياته رحمه الله ، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٥ هـ وتلقى العلم على أيدى علماء المسجد النبوى الشريف ومن أبرز أساتذته الشيخ الطيب الأنصارى العالم السلفى المشهور والشيخ أبوبكر التمبكتى والشيخ عبدالكريم كردى والشيخ العايش وهو من علماء الأزهر المجاورين بالمدينة المنورة ، كما أنه تأثر بخاله الشيخ عبدالحفيظ كردى شاعر المدينة المنورة ومن قضاتها المشهورين فى العهد الهاشمى ، وبعد إتمام دراسته اشتغل بالتدريس فى مدارس المدينة المنورة كما عمل فى تحرير جريدة المدينة المنورة أول ظهورها ، ولم تطل إقامته بالمدينة المنورة فعين ١٣٥٧ هـ قاضيا بمدينة العلا شمال المدينة المنورة وانتقل اليها لبضع سنين وما لبث أن عاد الى المدينة المنورة بعد أن ترك العلا ليعمل فى المحاماة وضاقت المدينة بنشاطه فى المحاماة فانتقل إلى مكة المكرمة فى أواخر الخمسينات وعمل بها فى المحاماة فترة من الزمن ، ثم عين رئيسا لكتاب

مديرية الأوقاف العامة بمكة المكرمة ثم مستشارا قضائيا لأمانة العاصمة فى عهد المرحوم الشيخ عبدالرؤوف الصبان ثم عضوا بمجلس الشورى فى أوائل عهد الملك سعود وقد بقى يمارس عمله فى مجلس الشورى إلى أن انتقل بأسرته إلى سوريا ثم إلى مصر وتكرر انقطاعه عن المجلس فترات طويلة فأحيل إلى التقاعد ، وقد بقى فى مصر عدة سنوات إلى أن حصل نجله حمزة رحمه الله على البكالوريوس من جامعة القاهرة فعاد بأسرته الى جدة وافتتح مكتبا للمحاماة نجح فيه نجاحا كبيرا وقد بقى يمارس هذا العمل إلى أن توفى فجأة بالرياض بتاريخ ٢٤ صفر ١٣٩٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة ، كان الشيخ ضياء الدين رجب نمطاً فريدا من الناس وقد استطاع بما وهبه الله من سماحة نفس وهدوء طبع أن يجمع القلوب حوله فأحبه الناس والتفوا حوله فكانت داره كما كان مكتبه يزدحم بالناس من كافة الطبقات وكانت له قدرة عجيبة على الاستماع إلى الناس ومشاركتهم فيما يهتمون به من شؤون أنفسهم وكانت هذه المشاركة تقتضى منه التوسط لدى المسؤولين فى الإدارات المختلفة ، أو لدى القادرين من الناس ولم يكن عمله فى المحاماة قائما على المادة وحدها وإنما كانت معظم أعماله تتصف بالصبغة الانسانية أكثر مما تتصف بالعمل المادى المنظّم ، وكان هذا الأمر يتجلى إذا كان أصحاب الحق من المستضعفين من الناس أو من النساء اللاتى فقدن الناصر والمعين ، ولم يكن يلجأ فى مثل هذه الحالات إلى المقاضاة وإنما كان يتخذ طريق الإصلاح وسيلة لفض هذه المنازعات وقد اكتشفنا بعد وفاته رحمه الله حوادث كان يمكنه أن يربح من ورائها الملايين ولكنه بدلا من أن يلجأ إلى التعاقد مع أصحاب ـ أو على الأصح ـ صاحبات القضايا دخل فيها بروح النجدة لامرأة استضعفها أهلها فحرموها حقوقا كثيرة فقام هو باستخلاصها لها بهذه الروح الطيبة التى تندفع بدافع المروءة والنجدة وتتناسى ما يجنيه أمثاله فى هذه

المواقف من أموال طائلة تعتبر بالنسبة لمن يمارسون هذا العمل من الفرص القليلة النادرة ، وكان الشيخ ضياء الدين ذا صلة وثيقة بالمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وعُرفت هذه الصلة بينهما خاصة خلال الفترة التى ولى فيها المرحوم الشيخ محمد سرور وزارة المالية ، وخلال إقامته فى مصر بعد خروجه من الوزارة فكان الشيخ ضياء الدين ينقل إليه حاجات الناس ومطالبهم وخاصة أولئك الذين يمنعهم الحياء من الطلب أو الذين يتحرجون فى إيصال مطالبهم إليه وكان الشيخ محمد سرور رحمه الله يستجيب لهذه المطالب بروح من السماحة والبذل وبدافع من ثقته الشخصية بالشيخ ضياء الدين وسعيه فى الخير وكان الرجلان يكتمان من أمور الناس ما يجب كتمانه ويستران من العورات ما يجب ستره ، وكان الشيخ ضياء الدين رحمه الله كريما فى جميع الحالات حتى فى الأوقات التى كان يعانى فيها من ترك العمل أو خلو ذات اليد فإذا وصل إلى يده شيء سرعان ما أسعف به غيره من أصحاب الحاجات ولعل البعض من هؤلاء الناس كان أحسن منه حالا ولكنه يرحمه الله كان مفطورا على النجدة والعطاء على الإقلال والإعسار ، وحينما حسنت أحواله كان له الكثير من الإحسان الخفى وكان ينفق على ذوى قرباه ويصلهم ويرعى شؤونهم ٠

وكان أصدقاء الشيخ ضياء الدين من كافة الطبقات بدءاً بالعامة من الناس وانتهاء بالوزراء كما كان معروفا لدى الكثيرين من العلية والحكام وكان الجميع يحبونه وكان الكثيرون يعتمدون عليه فى قضاء حوائجهم ، وما أكثر هذه الحوائج وكنت أعجب له رحمه الله كيف يستطيع احتمال كل هذه الأعباء إلى جانب عمله الشاق فى المحاكم وفى مكتبه الذى يغص بأصحاب القضايا والحاجات حتى وقت متأخر من الليل ، وكان هاتفه لا ينقطع من المكالمات التى تحمل فى ثناياها هذه التكاليف العجيبة ولكنه كما ذكرت كان ذا قدرة عجيبة على إرضاء الناس وعلى

الإصغاء اليهم ، وتفهم حاجاتهم وكان ذا بصيرة بطباع أصدقائه والمتحدثين إليه فكانوا يتركونه وهم يشعرون بالراحة وحتى ولو لم تقض لهم حاجة أو يتحقق لهم مطلب فإن شعور المرء بأن هناك من يشاركه فى همومه ومشاكله يخفف من أعبائه النفسية ويشعره بالراحة والاطمئنان ، وهكذا فإن مشاركة الشيخ ضياء الدين رحمه الله للناس فى اهتماماتهم أكسبه محبة الناس وتقديرهم ، وقد تجلّى هذا الحب فى حياته حينما فقد ابنه الشاب المرحوم حمزة ضياء الدين رجب وهو فى اكتمال فتوته وأوج شبابه فكانت مشاركة الناس للشيخ ضياء الدين فى فجيعته بوحيده البكر ، ـ كان المرحوم حمزة رجب هو الولد الوحيد وبقية ذرية الشيخ ضياء الدين من الإناث ـ مشاركة عظيمة تجلت فى إقبال الناس عليه بالتعزية والمواساة ، وتجلّت فيما كتبه الكثيرون من أصدقائه أو معارفه فى رثاء ابنه ومواساته ، كما تجلت هذه المشاركة بعد وفاة المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب رحمه الله فقد لمسنا من مواساتهم مقدار ما كان يتمتع به فى نفوس الناس من محبة وتقدير .

وللشيخ ضياء الدين رحمه الله إلى جانب أخلاقه الشخصية الكريمة نواحٍ أخرى فهو شاعر من أكبر شعراء المملكة وكاتب من أقدر الكتاب وكان ينشر إنتاجه الأدبى بجريدة المدينة المنورة فى أول ظهورها فقد كان أحد كتابها البارزين ، كما كان ينشر بين الفينة والفينة فى جريدة صوت الحجاز والمنهل ما تجود به قريحته من شعر ونثر وفى السنوات الأخيرة من حياته واصل الكتابة للاذاعة السعودية فكانت له أحاديث يومية مذاعة ، كما واصل الكتابة فى جريدة البلاد وكانت له كلمة يومية تنشر بعنوان « قطوف » كما كان له مقال أسبوعى فى هذه الصحيفة ، هذا عدا ما تنشره المجلات الأخرى مثل « قافلة الزيت » « والمنهل » وخلافهما من شعر ونثر ، والكتابة اليومية فى الصحف إذا كانت ناجحة ليست عملا سهلا كما يتصور البعض من الناس ، لأنها تعتمد أولا على

ذكاء الكاتب وسعة إطلاعه ، وشمول إدراكه وحساسيته إزاء ما يصادفه فى حياته اليومية مما يقرأ ويسمع ومما تضطرب به حياته وحياة من حوله من الناس ، فإذا استطاع الكاتب أن يشدَّ القراء إلى عموده اليومى مهما كان قصيرا فهو كاتب أصيل ممتاز وأشهد أن قطوف الشيخ ضياء الدين رحمه الله كانت تجذبنى إلى قراءتها صباح كل يوم ضمن القليل الذى أحرص على قراءته فى مختلف الصحف مع ضيق وقتى عن القراءة بما يزدحم به يومى من أعمال ، وإذا كان لى أن أقول كلمة صغيرة عن الشيخ ضياء الدين رحمه الله كأديب فهو فى رأيى كاتب مجيد وشاعر عظيم يذكرنى بالصفوة المختارة من الشعراء بأسلوبه العربى الأصيل ، وعاطفته الدافقة الثَّرَّةَ وهو يمثل نمطا فريدا من الشعراء فكأنـك تستمـع إلى الفحول من شعراء العصر العباسى كالشريف الرضى ومهيار الديلمى أو كأنك تستمع إلى شوقى فى ديباجته الناصعة ولعلى لا أفشى سرا إذا ذكرت هنا أن الشيخ ضياء الدين رحمه الله كان يسره أن يستمع إلى من ينشد ما ينظمه من شعر فكان يحضر إلى مكتبى إذا نشرت له قصيدة ويطلب منى إنشادها وأشعر بنفسه تهتز رضا وهو يستمع إلى هذا الانشاد ، ولعله كان يعجب بحرصى على فهم معانى القصيدة ومراميها ، فقد كنت أناقشه دائما فى كل ما ينشر له من شعر ، وكثيرا ما كنا نعقد المقارنات بين القصائد التى تنشر لأعلام الشعراء فى موضوع واحد وإنى لأذكر هنا أننا تدارسنا القصائد التى نظمت فى رثاء المرحوم رياض الصلح زعيم لبنان الكبير وفى أمثال هذه المناسبات كنـا نتـدارس القصائـد الموسمية التى تلقى فى موسم الحج والتى يشترك فيها شعراء كثيرون من داخل المملكة وخارجها وكان الشيخ ضياء الدين رحمه الله على صلة واسعة بشعراء عصره وأدبائهم فحين إقامته فى الشام توثقت صلته بشعراء سوريا الكبار شفيق جبرى وسليمان الأحمدوغيرهم كماأنى اجتمعت فى داره بدمشق بالأستاذنصوح

بابيل صاحب جريدة الأيام الشهيرة فى سوريا إذ ذاك وكان على صلة وثيقة بالسيدين أبو الخير الميداني والسيد محمد مكى الكتانى رحمهما الله وكليهما من علماء سوريا وزعمائها الدينيين وفى مصر اجتمعنا فى منزله بالأستاذ الشاعر أحمد رامى الذى كان ممن توثقت صلة الشيخ ضياء الدين بهم رحمه الله ، كما علمت أنه كانت له صلات كثيرة برجالات العلم والأدب فى كل من القطرين وفى مصر كنت أرى الشاعر المرحوم محمد مصطفى حمام والشاعر محمد جبر لدى الشيخ ضياء الدين فى أوقات متقاربة وغير هؤلاء كثيرون ممن لا تحصيهم الذاكرة وحينما كان فى مصر كان على صلة كبيرة بالأمير عبدالكريم الخطابى قائد ثورة المغرب الشهيرة ضد أسبانيا وفرنسا وحينما توفى رثاه بقصيدة عصماء نشرتها له مجلة « قافلة الزيت » فى تلك الأيام أما صلة الشيخ ضياء الدين رحمه الله بشعراء وأدباء عصره فهى صلة الصداقة الكريمة والحب الخالص ، كان يحب الجميع وكان الجميع يحبونه ويقدرونه وكان بما وهبه الله من خلق سمح ولسان عف يبعد عن المنازعات التى تكدر علائق المودة بين الأدباء فلا يهاتر ولا يخاصم ووقف من هذه الخصومات الأدبية التى كانت تحدث بين أدباء عصره وشعرائهم موقف المحايد النائى بنفسه عن التورط فيما لايليق بمقام العالم والأديب ·

نعم لقد كان الشيخ ضياء الدين قبل كل شيء وبعده لا ينسى أنه طالب علم ، وأنه تقلد القضاء وهو عمل من أرفع الأعمال وتولى التدريس وهى مهنة شريفة كريمة ، وقد كان مع من يحيط به من الشباب الذى يحبونه فى مقام الأبوة الحانية يرشد ويعلم ويحنو ويكرم دون أن يشعر من حوله بشيء من الاعتزاز بعلمه أو الإدلال بمكانته ، بل أنه يشعر من حوله بأنه منهم وإليهم وبهذه الصفات الكريمة السمحة تبوأ مكانه فى النفوس ورسخت محبته فى القلوب رحمه الله رحمة واسعة ·

مُبالغتهُ في تقدير سِنّه

ومن طرائف الشيخ ضياء الدين رحمه الله أنه كان يبالغ فى تقدير عمره خلافا لما جرى عليه العرف بين الناس وقد رأيته مرة يذكر أنه فى الثمانين من العمر وكانت المبالغة واضحة فقلت له الم تذكر لى أنك توليت القضاء وأنت فى العشرين من العمر قال نعم قلت فكيف بلغت الثمانين ولم يمض على هذا الأمر الأربعون عاما فضحك وقال إننى فى الحقيقة لا أدرى قلت ولكنك تتعمد المبالغة قال لقد رأيت الناس يحاولون إنقاص أعمارهم فأردت أن أخرج من النزاع فى هذا الأمر بالزيادة بدل النقصان ..

الشّيخ ضياء الدِّين وَالنسيَان

ومن طرائفه أيضا أنه كان كثير النسيان حتى عرف بذلك بين أصدقائه ، وأنا شخصيا أعرف أنه كان يبالغ فى التظاهر بكثرة النسيان فقد كان كما ذكرت فى صدر هذه الترجمة مقصودا من الناس فى أمور كثيرة ومن المؤكد أن وقته كان يضيق بالقيام بهذه الأمور بل ببعضها فكان النسيان والسرحان هو العذر الذى يلجأ اليه والذى يقبله الناس عملا بالحديث الشريف « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، ولقد رأيته رحمه الله يحفظ أرقام التليفونات ولا يكتبها فى مذكرة وإنما يستمدها من ذاكرته العجيبة التى تحفظ ما تريد وتتناسى ما لاتريد ، ولاشك أنه كان لاينسى إطلاقا ما يهم من الأمر ولكن حادثة طريفة سمعتها منه تعتبر من أعاجيب السهو والنسيان

قال:وفد عليه من الطائف المرحوم محمد بصراوى ـ وكان يلقب بالبيك ـ وكان مديرا لأوقاف الطائف وخرجا من إدارة الأوقاف بالمالية بمكة بعد انتهاء

ساعات العمل وذهبا إلى منزل الشيخ ضياء الدين فى جرول لتناول الغداء وترك الشيخ ضياء الدين ضيفه فى الدور الأول من المنزل ونسى أن يذكر لأهل الدار أن ضيفا سيتناول الغداء معه قال الشيخ ضياء الدين:وكنت متعبا فاستلقيت على السرير ونمت ولم أقم إلا وقد غشينا العصر فتغديت ونسيت الضيف الذى ينتظرنى فى الدور الأول وقد أوشكت الشمس على المغيب وحينما هبطت اليه وجدته يكاد يبكى من الجوع وضاعت معه كل حيلى فى الاعتذار بالسهو والسرحان وظل يشكونى إلى كل من يراه إلى أن توفاه الله •

المحاماة في القرآن

ومن الطرائف التى ذكرها لى الشيخ ضياء الدين رحمه الله ، أنه كان يعمل بالمحاماة بعد أن صرف عن قضاء العلا ، ويبدو أن بعض القضاة شكوه إلى جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله واقتضى الأمر أن يقابل هو جلالة الملك عبدالعزيز ويشرح له الموضوع قال ، قال لى جلالة الملك: ولكن المحاماة لا أصل لها فى الشرع ، قال فقلت لجلالته إن لها أصلا فى القرآن قال هاته • قال : قلت :قال تعالى فى سورة النساء « ولا تكن للخائنين خصيما » ، أى مدافعا عنهم والمحاماة هى الدفاع عمن لا يستطيع الإدلاء بحجته فقبل جلالته ذلك راضيا. ومما يذكر أن هذه الآية كانت مكتوبة بخط جميل فى لوحة خشبية وكان الشيخ ضياء الدين يضعها فى مكتبه الذى يمارس فيه عمل المحاماة بحيث يراها كل من يجلس إليه من أصحاب القضايا ، وكأنه بهذا يوحي إليهم أنه لا يقبل من القضايا الا ما كان أصحابها على حق وهو مبدأ لو تمسك به المتخاصمون لأراحوا واستراحوا •

ديوان الشيخ ضياء الدين

هذا وقد جمع المرحوم الشيخ ضياء الدين قصائده فى مجموعات كبيرة مجلدة ومنسوخة بالآلة الكاتبة وكثير من هذه القصائد لم ينشر فى حياته وقد اتفقت أسرته مع نادى جدة الأدبى على نشر هذه القصائد فى مجموعات متفرقة ولابد أن المجموعة الأولى ستنشر قريبا بإذن الله وهى خدمة عظيمة للأدب السعودى يقدمها نادى جدة الأدبى مشكورا فإن الشيخ ضياء الدين يعتبر مفخرة من مفاخر الشعر العربى فى هذا العصر لا فى المملكة العربية السعودية وحدها وإنما فى الوطن العربى كله وهو بأسلوبه الناصع ومعانيه الثرة وعاطفته المتوهجة يمثل النسق الشعرى الأصيل فى صفائه وجودته ورقته ·

بعد كتابة ما تقدم يسرنى أن أذكر أن المجموعة الكاملة لشعر الشيخ ضياء الدين رجب قد تم إعدادها للطبع على نفقة صاحب السمو الملكى الأمير الشاعر عبدالله الفيصل وآمل أن تكون قد ظهرت قبل طبع هذا الكتاب ·

تمسكه بالشعر العمودي

ولعل مما يحسن ذكره ونحن نتحدث عن شعر الشيخ ضياء الدين أنه كان من المتمسكين بالشعر العمودى المنظوم ولم يكن يمارس هذا الخلط الذى يسمونه الشعر المنثور بل ولا يستسيغه أو يعترف به كما هو شأن الكثرة من الشعراء المجيدين ·

فتى سلع

كما أن الشيخ ضياء الدين كان ينشر شعره الغزلى بتوقيع مستعار هو ـ فتى سلع ـ ولقد كان يتبع هذه الطريقة منذ بداية نشره للقصائد الشعرية فى الخمسينات وإلى أن توفاه الله وهو يهدف إلى الشيخوخة ·

مُؤلّفَاتُه الأخرى

هذا وقد كان الشيخ ضياء الدين رحمه الله أخبرنى أن له مؤلفا صغيرا بعنوان ـ وقفة فى ديار ثمود ـ وقد ألفه حينما كان قاضيا بالعلا ولكننى لم أجد مخطوط هذا الكتاب ضمن ما تركه من آثار أدبية ،وإنى لأرى أن أديبا كبيرا كالشيخ ضياء الدين يستحق أن تتكفل كلية الآداب بإحدى جامعاتنا بجمع آثاره المنشورة بالصحف والمذاعة بالمذياع لاختيار ما يصلح منها للنشر توطئة لطبعه ونشره لتكون هذه المنشورات وسيلة كافية للدراسة الكاملة لأدبه وإنتاجه ٠

وفَـاتُـه

هذا وقد أدركت الوفاة المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب فى الرياض فى ليل الرابع عشر من شهر صفر ١٣٩٦ هـ وكان بدار ابنته « لميس » فشعر بضيق فى التنفس وألم فى الصدر وحينما نقل إلى المستشفى لإسعافه أسلم الروح وهو فى الطريق إلى المستشفى رحمه الله وكانت لوفاته رنة حزن عظيمة فى جميع الأوساط وقد نقل بطائرة تابعة لوزارة الدفاع من الرياض فى صباح يوم الخامس عشر من صفر ١٣٩٦ هـ إلى جدة حيث جهز ونقل إلى مكة المكرمة وصلى على جثمانه فى المسجد الحرام ودفن بمقبرة المعلاه رحمه الله رحمة واسعة فلقد كان رجلا خيرا وعالما نيرا وأديبا وشاعرا كبيرا ٠٠

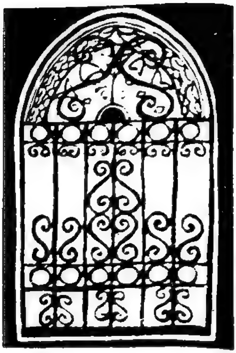

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

سليمان أمان قابل

سليمان أمين قابل

متوسط القامة ممتلىء الجسم شديد السمرة واسع العينين يضع على عينيه نظارة ذهبية كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ثم أصبح يرتدى العباءة والعقال المقصب فى العهد السعودى ٠

إن ما لفت نظرى فى تاريخ الشيخ سليمان قابل هى عصاميته الفذة فلقد بدأ حياته مع أخيه الشيخ عبدالقادر قابل بداية بسيطة ولكنه استطاع بطموحه وعصاميته ان يتبوأ المناصب الكبيرة فى العهد الهاشمى ثم فى العهد السعودى وان يستطيع محله التجارى افتتاح شارع من أهم شوارع مدينة جدة كما سيأتى ايضاحه فيما بعد ٠

رئيس المحكمة التجارية

عرفت الشيخ سليمان قابل وهو يتولى منصب رئيس المحكمة التجارية بمدينة جدة ، وهى أول محكمة من نوعها تقام فى العهد السعودى للفصل فى الأمور التجارية التى لها طابع خاص وذلك لما تتميز به مدينة جدة من التخصص فى أمور التجارة بأنواعها[١] ، كما كان يمارس الأمور المتعلقة بالتجارة منذ العهد

(١) كما كان رئيسا لبلدية جدة فى العهد الهاشمى ٠

الهاشمي فلقد كان يرأس الإدارة التى تمنح تراخيص الاستيراد فى وقت من الأوقات وهو أمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن الرجل قد استطاع الفوز بثقة الدولة فى العهد الهاشمي والعهد السعودى على السواء وهو يدل كذلك على ان شخصيته العصامية وطموحه قد مهدا له السبيل للبروز بين أقرانه من الرجال ولعله من المناسب أن نذكر أن الشيخ سليمان قابل تولى رئاسة أول شركة للسيارات تأسست فى مدينة جدة فى أوائل العهد السعودى ولكن هذه الشركة لم تستمر فقد واجهتها مشاكل كثيرة انتهت بتصفيتها .

شارع قابل

على أن أهم إنجاز يتميز به الشيخ سليمان قابل فى نظرى هو افتتاحه لشارع قابل المعروف والمسمى باسم أسرته حتى اليوم وهو شارع من أهم شوارع مدينة جدة كما هو معلوم ، ولهذا الشارع قصة يحسن ذكرها فان الملك الحسين بن على هو الذى قام ببناء الشارع فى الثلاثينات فى عهد ولايته عرش الحجاز وفى عهد ابنه الملك على بن الحسين اشتراه آل قابل من الملك على مقابل بعض المال وبعض الأغذية التى كانت حكومته فى أشد الحاجة إليها لتصرف للجند خلال الحرب السعودية الهاشمية ، قالوا وكانت الصفقة فى مصلحة المشترى أكثر منها فى مصلحة البائع وليس هذا هو المهم فى الأمر ولكن المهم ان الشيخ سليمان قابل استطاع بذهنيته المتفتحة ان يجعل من هذا الشارع أهم شارع فى مدينة جدة فى ذلك الزمان فلقد كان الشارع مكشوفا فتعاقد بيته التجارى مع شركة ألمانية على تسقيفه وتم تغطية الشارع بسقف من المعدن المضلع ـ التوتوه ـ يقوم على أعمدة حديدية ويرتفع ارتفاعا كبيرا لأن علو الشارع كان قد بنى عليه دور من المكاتب التجارية ، ولقد شاهدت العمل فى تغطية الشارع فى الأربعينات فى أوائل العهد

السعودى وهو يسير على قدم وساق حتى تمت التغطية على أحسن ما تكون فى ذلك الزمان ولم يكتف آل قابل بهذا التجديد ، ولكنهم استوردوا مكينة كهربائية ضخمة وأدخلوا النور الكهربائى والتهوية الكهربائية إلى كل دكان ومكتب فى الشارع فتدافع أصحاب الدكاكين إلى الاستئجار فى شارع قابل وأصبح الشارع مختصا بالقماشين ومن اليهم ممن تحتاج بضائعهم إلى مثل هذه التحسينات والتجديدات التى تميز بها شارع قابل ، إن آل قابل قد أفادوا كثيرا من التحسينات التى أدخلوها على شارعهم ، ولكنهم فى نفس الوقت قد أفادوا الناس ، وقدموا للمدينة التى ينتمون اليها خدمة حضارية لاشك فيها ، ولقد ذكرت فيما مضى من هذه التراجم أن الربح لا يغض من قيمة العمل المفيد ولا ينقص من تقديره وأن الجانب الذى يعنينا منه هو مقدار ما يفيد منه الناس وما يدخل على الوطن من أسباب الحضارة والتيسير وفى رأيى أن هذا العمل إذا كان تجاريا فان توفر عنصر الربح جوهرى لبقائه ودوامه •

مَوَائِد الإفطار فى رَمَضان

وكان منزل آل قابل فى مدينة جدة يتميز كذلك باقامة موائد الإفطار فى كل يوم من أيام رمضان من بداية الشهر إلى نهايته وكانت هذه الموائد تضم فى كل يوم كبار موظفى دائرة حكومية مع بعض أعيان المدينة وتجارها وكانت هذه العادة الجميلة تتيح لآل قابل توثيق علاقاتهم بكبار موظفى مدينة جدة وهو نوع مما يسمى فى الوقت الحاضر بالعلاقات العامة لم يكن معروفا فى ذلك الزمان ، على أى حال لقد كان منزل آل قابل مفتوحا مغرب كل يوم فى رمضان وكانت موائدهم منصوبة لاستقبال الضيوف كما كان منزلهم فى مساء كل يوم مفتوحا لأصدقائهم من أعيان المدينة وكنت أرى الحاج عبدالله على رضا قائممقام جدة وشقيقه

الحاج زينل على رضا ممن يحضرون إلى منزل آل قابل أصيل كل يوم حيث يصلون المغرب جماعة ويتسامرون ساعة من الليل ثم يعود كل منهم إلى داره على عادة كبار أهل جدة فى ذلك الزمان ٠

وكان منزل آل قابل من المنازل القليلة التى تضاء بالكهرباء فى وقت لم تكن فيه الكهرباء معروفة إلا فى منازل السفارات والشركات الأجنبية ٠

وكان منزل آل قابل يقع فى الحدود ما بين حارة الشام وحارة المظلوم ولايزال هذا المنزل قائما ولكن أهله قد تركوه منذ سنوات طويلة بعد وفاة كبار رجال العائلة وأصبح المنزل خربا غير مسكون ٠

أهل الحارة وعنعناتهم

وعلى ذكر منزل آل قابل الذى ذكرنا أنه يقع فى الحدود ما بين حارة الشام والمظلوم نذكر هنا حادثة طريفة تتعلق بموضوع حارات جدة والعنعنات التى كان يتمسك بها رجال الحارة أو الحارات على الأصح وهى تدل على مدى العقلية التى كانت تتحكم فى عقول بعض الناس فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى الذى ودعناه منذ بضعة شهور ، كانت مدينة جدة تنقسم إلى أربع حارات هى : حارة الشام وكانت فى شمال المدينة وفيها مقر الحكومة ومقر السفارات والشركات الأجنبية ، مما يلى البحر والشمال وحارة المظلوم وهى تقع فى شرق مدينة جدة وتمتد إلى وسطها ، وحارة اليمن وهى فى جنوب جدة وكان يتمركز فيها وكلاء الحجاج وينزل فيها الحجاج قبل بناء مدينة حجاج البحر وحارة البحر وهى ممتده إلى جوار البحر من الجنوب باتجاه الشرق ويسكن فيها البحارون وملاك الزوارق البحرية وما إليها وكل من تتعلق أعمالهم بالبحر يوم

أن كان للبحر رجاله وعماله من أهل المدينة قبل التطور العظيم الذى أدخل على ميناء جدة[١] .

نقول كان رجال كل حارة يعتبرون حارتهم معقلا لهم وينظرون إليها نظرة فيها كثير من العصبية إذا جاز هذا التعبير فلا يسمحون لرجال الحارات الأخرى بالدخول إليها فى المواكب والحفلات إلا بعد ترتيب خاص يخبرون فيه أهل الحارة بقدومهم ، وحدث أن أقام الشيخ محمد الطويل كبير جدة فى ذلك الزمان عرسا لأحد أقربائه وكان الشيخ محمد الطويل من سكان حارة الشام وكان أهل العروس يسكنون فى حارة اليمن وفى الهزيع الأخير من الليل قام موكب العريس من بيت الشيخ محمد الطويل بحارة الشام يحف به المنشدون المشهورون فى ذلك الوقت وتتقدمه المصابيح الغازية الكبيرة ـ الأتاريك ـ يحملها الرجال ، كما كان يمشى حملة مباخر العود بين يدى العريس وحينما وصل الموكب الذى كان يمشى فيه كثير من أعيان المدينة ورجالها وشبابها إلى حدود حارة اليمن وتقع هذه الحدود أمام مسجد المعمار عند بيت آل الجمجوم فى ذلك الوقت تعرض بعض أهل حارة اليمن للموكب وطلبوا منه العودة من حيث أتى قائلين ـ هذه حارتنا ولن نسمح لكم بالدخول وأصر أهل حارة الشام على الدخول فكيف يعودون ومعهم هذا الموكب الضخم العظيم وفقد رجال الحارتين اعصابهم فتسابوا ثم استعملوا عصيهم يضربون بها بعضهم بعضا وانفرط عقد الموكب وتفرق الناس خائفين على أنفسهم من نتائج المعركة المجنونة التى نشبت فجأة دون إنذار والتى أوقد شعلتها شباب غير مسؤولين فقدوا أعصابهم فى ساعة من ساعات الحمية الكاذبة ولم يستطع العقلاء التدخل وإيصال العريس إلى منزل عروسه الا بعد مشقة وتعب ولكن كان الضرب قد حدث وكذلك الإصابات فى الجانبين وتدخلت الشرطة وأخذت

(١) اصبحت محلات جدة او حاراتها الان اكثر من عشرين حيا واصبحت لها عدة بلديات بعد ان تضاعف نمو المدينة اكثر من عشرين ضعفا ..

الجميع إلى السجن وكان مساعد قائممقام جدة يومها المرحوم الشيخ عبدالعزيز ابن زيد وسمعته يقول : إن كانت هذه المعركة بسبب الحدود فاننا سنرسل المتقاتلين الى الحدود الحقيقية لحمايتها أما هذه الحدود داخل المدينة الواحدة فهى حدود كاذبة مفتعلة ولقد كانت هذه الحادثة هى آخر ما أعرفه عن حوادث الحدود بين الحارات إذ كان تصرف الدولة الحازم كفيلا بالقضاء على هذه النعرات الى غير رجعة والحمد لله ٠

نعود بعد هذا الاستطراد الذى جرنا إليه موقع منزل آل قابل فى مدينة جدة الى الشيخ سليمان قابل فنقول إنه توفى الى رحمة الله تعالى بعد مرض أَلَمَّ به سافر من أجله للاستشفاء فى مدينة القاهرة ثم عاد الى مدينة جدة ولكن الأجل كان قد دنا فتوفى وكأنما كانت وفاته نذيرا بانطواء تاريخ الأسرة التى كان يجمع شملها ويرفع اسمها رحمه الله رحمة واسعة فلقد كان رجلا عصاميا طموحا وقد استطاع أن يبرز بين رجال مدينة جدة بهذه العصامية وبهذا الطموح ٠

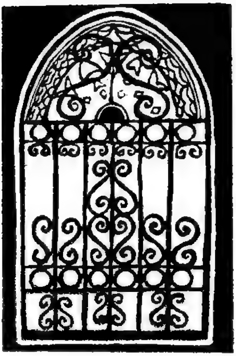

إعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

السيد صالح بن بكري شطا

السيد صالح بن بكري شطا

طويل فارع ، معتدل الجسم ، أبيض اللون تشوب بياضه حمرة خفيفة ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، يضع على عينيه نظارة ذهبية ، كان فى العهد الهاشمى يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، وقد أدركته فى الخمسينات وهو يرتدى العباءة العربية والغترة البيضاء دون عقال وهو الزى الذى يتميز به علماء الدين والقضاة ، ولا عجب فى ذلك فالرجل من بيت علم ودين وقد ظل محتفظا بصفته هذه رغم المناصب الكبيرة التى أسندت إليه فهو من أولئك الرجال الذين تنفرد شخصياتهم بما وهبها الله من صفات فتضع بصماتها على ما يسند اليها من منصب أو عمل فلا يجرفها المنصب أو الجاه ، ولا يبطرها الثراء أو الحسب لأنها تستمد قوتها من صفاتها الشخصية التى تفرض حبها على الناس فى بساطة ويسر .

ولد السيد صالح شطا عام ١٣٠٢ هـ بمكة المكرمة وتوفى والده وهو فى الثامنة من العمر فكفله أخوه الأكبر السيد أحمد شطا المدرس بالمسجد الحرام ، وحفظ القرآن الكريم فى صباه وتلقى تعليمه على أيدى أعلام العلماء من أسرته ومن علماء مكة المكرمة الذين تعقد حلقات دروسهم فى رحاب المسجد الحرام

أمثال السادة : احمد وعمر شطا والسيد عبدالله دحلان والسيد حسين الحبشي وغيرهم[1] وبعد أن أتم دراسته حصل على إجازة بالتدريس من هيئة العلماء بمكة المكرمة فكان يلقى دروسه فى رحاب المسجد الحرام بباب الزيادة ٠

سمعت باسم السيد صالح شطا رحمه الله أول مرة فى أوائل الأربعينات حينما وفد بأسرته من مكة المكرمة إلى جدة خلال الحرب السعودية الهاشمية ونزل بدار الشيخ عبدالرحمن باجنيد ـ كانت هذه الدار فى شارع قابل أمام مسجد المعمار وقد أزيلت وأدخلت مع البيوت التى حولها فى الشارع الجديد المسمى شارع الذهب حاليا ـ أقول سمعت باسم صالح شطا لأول مرة حينما وفد بأسرته من مكة المكرمة ولكن لم يمض طويل وقت حتى شاع فى مدينة جدة خبر التجائه الى مخيم السلطان عبدالعزيز آل سعود بالرغامة ـ خارج مدينة جدة ولهذا الالتجاء خلفية لابد من ذكرها وقد حدثنى عنها السيد صالح شطا نفسه رحمه الله قال : كنت أقاوم حكم الشريف الحسين بن على لأنه كان ظالما بطاشا ولقد سجنت ومعى الشريف رضا « والد المرحوم الشريف محمد شرف رضا » فى سجن الحسين بمكة المكرمة لأن الحسين كان يعرف عنا هذه المعارضة ، قال وكنت أرسل المقالات إلى الجرائد المصرية « ولعله ذكر اسم مجلة المقتطف » أعدد فيها مظالم الحسين بتوقيع مستعار ، وكانت هذه المقالات تنشر ولا يعرف كاتبها إذ كانت الصحيفة تحتفظ باسم الكاتب سرا إذا رغب فى ذلك ، أقول ان هذه الخلفية للسيد صالح شطا رحمه الله توضح اختراقه للأسلاك الشائكة التى تحيط بمدينة جدة فى أيام الحصار والتجاءه إلى مخيم السلطان عبدالعزيز فهو إنما فعل هذا مدفوعا بكراهيته للعهد القائم إذ ذاك وهذه الحادثة بالذات تظهر مدى قوة شخصية الرجل وشجاعته فى اقتحام المخاطر ، فلو أن محاولته للخروج من مدينة

(١) سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر الهجرى تأليف عمر عبدالجبار صفحة ١٤١ ٠٠

جدة كشفت أو ألقى القبض عليه من قبل الجيش المدافع عن المدينة ، لكان مصيره فى مهب الريح ، ولكان فى موقف من أسوأ المواقف التى يتعرض لها من يقتحم هذه الأخطار بينما كانت أسرته الكبيرة مقيمة بمدينة جدة • هذا ماكنت قد كتبته عن هذه الحادثه المشار اليها ونشر فى الحلقة الخاصة بالمرحوم السيد صالح شطا • وقداتصل بى ابنه الأخ السيدمحمود شطا عضو مجلس الشورى وأخبرنى أن والده لم يلجأ إلى مخيم السلطان عبدالعزيز وأنه إنما ذهب مع من ذهبوا من زعماء مكة وجدة لمقابلة السلطان عبدالعزيز بالرغامة لإبداء آرائهم فيما تتعرض له مدينة جدة من المخاطر بما تضمه من الأهالى ورعايا الدول الأجنبية وأن الشريف الملك على بن الحسين لم يكن راضيا عن ذهابهم ولكنه لم يستطع منعهم وأنهم حينما عادوا سجنوا بالقشلة وأبعد منهم من أبعد عن البلاد وأن والده السيد صالح شطا كان من ضمن المسجونين بالقشلة مع المرحوم الأفندى محمد نصيف والشيخ سليمان عزايه • هذاوقد وجدت فى كتاب ماضى الحجاز وحاضره للأستاذ حسين محمد نصيف رحمه الله ما يدل على أن السيد صالح شطا كان أحد أعضاء الحزب الوطنى الذى تأسس فى مدينة جدة أيام الحرب الهاشمية السعودية وللتوفيق بين ما كنت كتبته عن التجاء السيد صالح شطا إلى مخيم السلطان عبدالعزيز حسب المعلومات التى كانت متداولة فى ذلك الوقت وبين ما ذكره لى ابنه السيد محمود شطا أقول إن السيد صالح رحمه الله كان معروفا بمعارضته الشديدة للحكم الهاشمى ولابد ان البعض حينما علم بذهابه مع من ذهبوا لمقابلة السلطان عبدالعزيز على كره من الملك على أنهم ظنوا أنه لجأ الى مخيم السلطان عبدالعزيز أو أن هذه الاشاعة أطلقت لتبرير سجنه مع زملائه الذين سجنوا وأبعدوا فيما بعد •

ولعله من المناسب أن نذكر الآن طرفا من الحالة الاجتماعية التى كانت تسود

البلاد فى هذه الفترة من الزمان فى أوائل الأربعينات من هذا القرن-الهجرى الذى يوشك على الانتهاء ٠

كانت الحياة الاجتماعية فى الحجاز مبنية على الترابط والسماحة وكانت البيوت مفتوحة لاستقبال الضيوف ولم تكن هناك فنادق أو خانات ينزل فيها المسافرون بين مدينة وأخرى وإنما كانت هناك علاقات صهارة أو صداقة أو عمل تربط بين الناس فكان المسافر من مكة إلى جدة ٠ أو من جدة إلى مكة ينزل فى بيت قريب أو صديق وكانت أغلب المنازل بها أماكن مخصصة للضيافة وكانت ضيافة الرجال فى الدور الأرضى من المنزل الذى كان يحتوى على دواوين ومقاعد بما يلزم لها من خدمات ، أما النساء فكانت استضافتهن فى الأدوار العليا مع نساء العائلة فإذا حضر الرجل بأهله دعى ليلا إلى الصعود إلى مجلس فى هذه الأدوار يخصص لمبيته مع أهل بيته لايختلط بنساء العائلة أو رجالها فإذا كان الصباح ترك هذا المجلس إلى الدور الأرضى حيث يجتمع الرجال جميعا لتناول الإفطار ثم طعام الغداء وتبقى هذه البيوت مفتوحة طيلة النهار وصدرا من الليل يقوم على خدمتها المكلفون بذلك من الرجال ٠ لهذا فإنه حينما وقعت الحرب الهاشمية السعودية وهاجر الكثيرون من أهل مكة إلى مدينة جدة بعائلاتهم نزل كل هؤلاء المهاجرين تقريبا فى بيوت أهل جدة فالقريب نزل عند أقربائه أو أصهاره والصديق نزل فى بيت صديقه ، والذى لا قريب له أو صديقا نزل كذلك فى بيوت عرف أصحابها بالكرم والنخوة ، ولقد كان لكبير جدة فى ذلك الوقت الشيخ محمد الطويل رحمه الله دور عظيم فى إسكان الوافدين من أهل مكة وإنزالهم فى جدة بحكم منصبه العظيم وزعامته فى مدينة جدة فى ذلك الزمان ٠

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن السيد صالح شطا رحمه الله

الصبان ، والشيخ محمد صادق ، وكانوا جميعا ينشرون مقالات فى جريدة صوت الحجاز توضح استجابتهم للنداء واستعدادهم للخدمة فى المجال الذى يختاره لهم جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وقد رأيت السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله يوم عاد فى لباس الإحرام عشية يوم عرفه فى مخيم الشيخ محمد سرور الصبان فى عرفات فى حج عام ١٣٥٤ هـ ٠

مُديرِيّة التعليم العَامّة

وقد أسند جلالة الملك عبدالعزيز إلى السيد محمد طاهر الدباغ إدارة التعليم فى المملكة وكانت إدارة بسيطة فجعلت مديرية عامة ، ولقد كان جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ذا فراسة فى الرجال يعرف أقدارهم ويستفيد من قدراتهم وكان بهذا الاختيار قد أعطى القوس باريها فانطلق السيد محمد طاهر رحمه الله بالمعارف الانطلاقة الكبرى التى كانت النواة الطيبة للنهضة التعليمية فى المملكة ٠

مَدرَسَة تحضِير البعثات

وكان أول ما فكر فيه المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ هو تنظيم الابتعاث إلى الخارج للدراسات العليا المتنوعة فأسس مدرسة تحضير البعثات فى مكة المكرمة واستقدم لها الأساتذة وذلك لتهيئة الطلاب للدخول إلى الجامعات والمعاهد العليا فى مصر بعد التخرج منها حيث وضعت برامجها بحيث تكون متفقة مع مناهج المدارس الثانوية فى مصر وكان الطلاب الذين يكملون الدراسة فى مدارس المملكة اذ ذاك يلتحقون بها فى مكة المكرمة وكانت مدرسة داخلية بالنسبة للطلاب القادمين من أنحاء المملكة الأخرى سواء من مدن الحجاز أو من مدن

نجد أو المناطق الأخرى فى المملكة ونستطيع أن نقول للتاريخ ان مدرسة تحضير البعثات كانت هى المهد الذى احتضن كل المبتعثين إلى الخارج فى ذلك الوقت والذين تخصصوا فى الدراسات العليا المختلفة كالطب والهندسة والتعليم وخلافهم ومن تلامذتها تخرج الوزراء والأطباء والمهندسون والعلماء نذكر منهم على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر السادة أحمد جمجوم ، الدكتور حسن نصيف ، المرحوم السيد احمد شطا ، الدكتور عبداللطيف جمجوم ، الدكتـور الهرسانـى ، السيد عبدالله الدباغ ، العلامة الشيخ حمد الجاسر وكثيرون غيرهم ممن لايتسنى ذكرهم فى هذه العجالة •

هذا وكان الطلبة المبتعثون من قبل يتعثرون فى دراساتهم حينما يصلون إلى مصر فيتضح انهم أقوياء فى بعض المواد بينما أنهم لم يكونوا قد تزَّودوا بالمقدار الكافى من المواد الأخرى العلمية كالرياضيات واللغة الانجليزية وغيرها ، فكان وجود مدرسة تحضير البعثات سببا فى سدْ هذه الثغرة ومنطلقا للنهضة التعليمية التـى هيأت للبـلاد النـواة الأولى من المتخصصين فى مختلف فروع العلـوم والفنون •

دَارالبعثاتِ فى مِصْـر

وكما عنى المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ بتأسيس مدرسة تحضير البعثات فى مكة المكرمة عنى بتهيئة دار البعثات العلمية بالسعودية بالقاهـرة وأسنـدت إدارتها الى مديرين مشهود لهم بالكفاءة والاخلاص وأذكر منهم على سبيل المثال المربى القدير السيد ولى الدين أسعد رحمه الله ، وكانت هذه الدار تضم الطلبة المبتعثين حيث يتهيأ لهم فيها المسكن والطعام ويشرف السيد ولى الدين رحمه الله ومعاونوه على إلحاقهم بالمعاهد المختلفة ويهتم بشؤونهم الدراسية والمعاشية فى آن

واحد مما هيأ للطلبة الجو المناسب للدراسة المنظمة الجادة التى آتت أكلها فيما بعد ثمرا جنياً ورجالا عاملين فى شتى المجالات هذا وقد تم فيما بعد تأسيس دار للبعثات السعودية بالاسكندرية تولاه المرحوم الأستاذ صادق ماجد كردى وكان يرعى الطلبة السعوديين الذين يتلقون دراساتهم فى جامعة الاسكندرية ٠

نشر المدارس في أنحاء المملكة

ولم يكتف السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله بالعناية بالدراسات العليا وتهيئة أسبابها فحسب وإنما بذل جهودا جبارة فى نشر التعليم فى كثير من مدن المملكة فبعد أن كانت مدارس المعارف فى المدن الكبرى محدودة العدد توسعت المديرية العامة للمعارف فى عهده بتشجيع من جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز فى افتتاح المدارس وخاصة الابتدائية ، والمتوسطة فكنا نرى فى كل عام زيادة ملحوظة فى عدد المدارس فى جميع المدن وفى كثير من القرى مما هيأ الجو المناسب للنهضة التعليمية الكبرى فيما بعد مع ادخال الاصلاحات الجذرية على مناهج الدراسة وتهيئتها لتكون متساوقة مع المدارس المماثلة فى البلاد العربية المجاورة [١]

مدرسة الأمراء في الرياض

وقد قام المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ كذلك بتأسيس مدرسة الأمراء فى الرياض أو على الأصح بتوسيعها وتنظيمها فقد كانت المدرسة موجودة من قبل ولكنها كانت فى نطاق ضيق فقام بتوسعتها وتنظيمها وقد أصبحت هذه المدرسة فيما بعد تضم مختلف الطبقات ولم تكن قاصرة على الامراء فحسب وهكذا فإن العلم مباح للجميع ٠

---

(١) للاستزادة عن تطور التعليم فى المملكة يراجع كتاب محمد طاهر الدماغ للاستاذ بكر الصباغ فهو يحتوى على معلومات قيمة فى هذا الشأن ٠

وقد بقى السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله قائما بأعباء هذا العمل العظيم لسنوات طويلة من عام ١٣٥٥ إلى عام ١٣٦٤ هـ ثم عين عضوا بمجلس الشورى ثم أحيل إلى التقاعد عام ١٣٧٢ هـ .

المرض والرحلة إلى مصر

وقد شعر السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله بالمرض الذى بدأ يؤثر على بصره فسافر إلى مصر طلبا للعلاج ولكن الداء كان قد استشرى فذهب بصره ولكنه كان كالعهد به دائما شجاعا مؤمنا فتحمل المرض فى صبر وايمان ولم يكن يشكو ذهاب بصره ، بل لم يكن يتحدث عن ذلك بتاتا ، حدثنى أحد أبنائه وكان معه فى مصر قال كنا نعرف أن لاعلاج للمرض الذى ألمّ ببصره ، وكنا نكتم عنه ذلك مراعاة لشعوره قال وكنت أشعر أن الوالد يعرف من أمر مرض عينيه ما نعرف وكان لايتحدث عن ذلك اشفاقا علينا ، لقد كان رحمه الله رحيما وزعيما عظيما ، ورجلا من أشجع الرجال هذا وقد أدركته الوفاة رحمه الله بالقاهرة فى ١٨ رجب ١٣٧٨ هـ ودفن بها مأسوفا عليه من كل الناس الذين عرفوا فضله وجميل صفاته رحمه الله جزاء ما أسدى للأمة من خير وما عمل فى سبيلها من جهد مخلص ونفع عظيم .

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

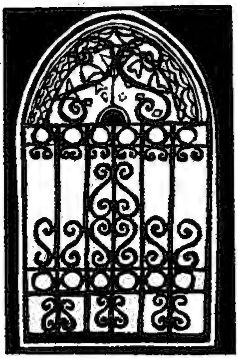

محمد علي زينل رضا

محمد علي زينل رضا

معتدل الجسم وسط فى الرجال لا بالطويل ولا بالقصير ، مستدير الوجه ابيض اللون ، واسع العينين ، اقنى الانف ، يضع على عينيه نظارة ذهبية ويرتدى الجبة والعمامة الحجازية وقد احتفظ بلباسه هذا حتى فى زياراته الكثيرة إلى اوربا بعد ان افتتح مكاتب بها لأعماله التجارية الواسعة ، قويُّ الشخصية وهبه الله مهابةً واسبغ عليه محبة فاذا رأيته هبته واحببته فى وقت واحد ولا عجب فى ذلك فقد هيأه الله تعالى بتوفيقه للزعامة بما وهبه من صفات البذل فى سبيل العلم من مال كثير وجهد عظيم استمر معه منذ نشأ الى ان توفاه الله تعالى وقد اشرف على التسعين من عمر طويل قضاه فى خدمة العلم والدين .

ولد الحاج محمد على زينل رضا بمدينة جدة فى اول القرن الهجرى سنة ١٣٠٠ هـ فى ظل والده الحاج زينل على رضا وكان هو واخوه الحاج عبد الله على رضا من اكبر تجار مدينة جدة وابرزهم وتعلم القراءة والكتابة فى دار والده على ايدى بعض علماء عصره كما بدأ دراسته اللغة الانجليزية والفارسية كذلك على ايدى من يعرفونها ممن يعملون فى بيت والده التجارى وكان مجاله الطبيعى بعد هذا العلم المحدود ان يعمل فى تجارة ابيه وعمه موظفا يتدرج فى الاعمال

ويتمرن عليها حتى يستطيع ان يمسك زمام الامور حين يشتد ساعده ولكن محمد على زينل كان شغوفا بالعلم منذ الصغر وخاصة بعلوم الدين ولم يجد فى مدينة جدة ما يشبع نهمته ويسد جوعته فاستأذن من أبيه فى السفر الى مصر والالتحاق بالجامع الازهر وهو أكبر مصدر لتلقى علوم الدين فى عصره ، ولكن والده الذى كان يرغب فى تهيئة ابنه للعمل التجارى لم يوافق على هذه الرغبة ، كما انه كان راغبا فى بقاء ابنه محمد على بجانبه وهو اكبر ابنائه ولكن حب محمد على زينل للعلم والدراسة استحوذ على فكره وأخذ بمجامع قلبه فما هو الاً ان حزم أمره وترك مدينة جدة دون علم والده ، وذهب الى مصر وبدأ الدراسة فعلا بالجامع الازهر ، ولكن الحاج زينل الذى لم يطق فراق ابنه تبعه الى مصر وأعاده الى بلده ، ورأى محمد على نفسه مرة اخرى فى مدينة جدة وقد حيل بينه وبين ما يرغب من تعليم ، رأى نفسه كما حدثنى رحمه الله فى جدة وهو شاب فى العشرين أو دونها وكان يصف حال العلم والتعليم فى أوائل القرن الرابع عشر قال عن :

نشوء فكرة مدارس الفلاح

« كان يقوم الجمال من مكة المكرمة باحماله ومعه ورقه بها اسم الرجل الذى له البضاعة فيدخل من باب مكة الى ان يصل الى الخاسكية ـ قلب شارع الملك عبدالعزيز الآن ـ فلا يجد من يحسن قراءة الورقة التى بيده الى ان يُيَسر الله من يقرأها بعد الجهد والتعب فيستدل على صاحب الاحمال وينزلها لديه قال وكانت فى مدينة جدة كلها مدرسة واحدة هى ـ المدرسة الرشدية ـ كان موقعها امام مسجد الباشا وقد هدمت بعد خرابها وتقرر ابقاء الارض دون بناء توسعة للشارع ـ وكانت هذه المدرسة تعلم اللغة العربية بالتركية ـ كان هذا فى اواخر العهد العثمانى ـ وحين انتشار حركة التترك التى كانت تمارسها جمعية الاتحاد والترقى

التركية ـ قال الحاج محمد على وهالنى الأمر ووجدت انه لابد من عمل شيء لتغيير الحال وتعليم الأولاد القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة على الاقل ولم يكن مسموحا بافتتاح المدارس او الكتاتيب فى ذلك العهد ، ولكن هذه العقبات جميعها لم تكن لتحول بين الرجل العظيم وما يريد قال فاستأجرنا مقعدا فى بيت ذاكر بحارة الشام ـ المقعد هو المجلس الذى كان يوجد فى مدخل كل بيت لاستقبال الرجال وجلوس صاحب المنزل به فى ذلك الحين ـ واتفقنا مع احد الفقهاء على تدريس الأولاد مبادىء القرآن الكريم والكتابة وتعليمهم صغار السور بين المغرب والعشاء قال الحاج محمد على وقد اخترنا هذا الوقت لنختفى عن عيون الدولة حيث لم يكن مصرّحاً لنا بهذا العمل ولأوّل مرةٍ وجدنا ان هناك مخاطر فى خروج الأولاد للدراسة وعودتهم تحت جنح الظلام فاتفقت واصدقائى عبدالرؤوف جمجوم ومحمد صالح جمجوم ، ويحيى سليم ومحمد صالح نوار أن يذهب كل منا الى منازل الاولاد (بعد الاتفاق مع آبائهم) لنأخذهم الى هذه المدرسة الصغيرة ثم نعيدهم الى منازلهم بعد انتهاء الدروس ، وهكذا كان فكان هؤلاء الشبان وجميعهم فى مطلع الشباب يذهبون الى بيوت الأولاد لإيصالهم إلى المدرسة ثم يعودون بهم بعد العشاء ليوصلوهم الى أهليهم بأمان •

تخذوا الظلام الى الضياء وسيلة ☆ والفجر يولد فى الدجى فيشيب

قال وكنا قد تقدمنا الى الحاكم التركى بطلب التصريح لنا بافتتاح مكتب لتعليم القرآن الكريم وقد حصلنا اخيرا على هذا التصريح فأصبحت المدرسة تمارس نشاطها فى وضح النهار واخذنا نشجع الكثيرين على ارسال اولادهم اليها ، وكان ما يأخذه الحاج محمد على زينل من مرتب شهرى لقاء عمله فى مكتب ابيه التجارى عشر روبيات[1] يذهب جميعه فى نفقات هذه المدرسة

(١) محمد على زينل رضا لمؤلفه محمد احمد الشاطرى •

الصغيرة وبدأ يفكر فى ايجاد موارد اكبر لتغطية نفقات المدرسة ومواجهة ما يحلم به من تكبيرها وتوسيع اغراضها ومن اهم ذلك ايجاد مبنى اكبر وأوسع ، وفى ذلك الوقت عرض مبنى مدرسة الفلاح الحالى بباب مكة للبيع وكان هذا المبنى بموقعه وبنائه الحديث وكثرة غرفه هو اصلح مكان للمدرسة التى يحلم بها هذا الشاب العظيم »

تَبرُّع زوجتِهِ بحُليِّها وجَواهِرِها

وأخذ الرجل يفكر فى الطريقة التى يستطيع بها توفير المال اللازم وهو لا يملك منه شيئا واخذت الفكرة بمجامع قلبه حتى ارقت جفنه وأقضت مضجعه ورأت زوجه ـ السيدة خديجة بنت عمه الحاج عبدالله على رضا ـ ما هو عليه من تفكير فسألته عما يشغله فأسرَّ اليها بالأمر ولم يكن من هذه السيدة العظيمة الكريمة الا ان قدمت كل ما تملك من مجوهرات وحلى لزوجها ليبيعه ويشترى به البناء المطلوب ، وهكذا كانت هذه المكرمة العظيمة من تلك السيدة العظيمة سببا فى شراء المبنى الكبير لمدرسة الفلاح فى شهر شوال **١٣٢٣** هـ

هبـــة تطـــوق كل أنثى عزة ☆ ان كاثرتنـــا بالهبـــات وهوب

ولعله من المناسب هنا ان نذكر للتاريخ ان الجامعة المصرية ـ جامعة فؤاد الاول ـ اوجامعة القاهرة اخيرا حين تأسيسها كانت تفتقر إلى المال فتقدمت أحدى الأميرات المصريات الى الجامعة بمصوغاتها ومجوهراتها فوهبتها للجامعة وقد اشادت الصحف المصرية اذا ذاك بهذا الحدث ، نقول ان هبة السيدة خديجة بنت الحاج عبدالله على رضا لشراء مدرسة الفلاح كانت قبل ذلك ، وكان سبقها بهذه الهبة من الاعمال الجليلة التى تدل على سمو نفس صاحبتها جزاها الله خير الجزاء •

وبعد شراء مبنى المدرسة بدا لمحمد على جليا ان من الضرورى العمل على ايجاد موارد مالية كافية للمدرسة ، فالمدرسة كل مدرسة كما هو معلوم كالمزرعة تبدأ فصلا واحدا ثم تنتهى الى فصول عديدة بحسب تدرج قدرة الطلاب على الاستيعاب وهكذا قرر محمد على الهجرة الى الهند طلبا لمجال أوسع من الرزق والعمل وسافر الى الهند تاركا المدرسة فى رعاية اصدقائه وزملائه وفى مقدمتهم الشابان عبدالرؤوف ومحمد صالح جمجوم وقد حدثنا الحاج محمد على شخصيا عن هذه الفترة ، فترة البداية فى مهجره بالهند قال كنت محتاجا الى المال الذى ابدأ به العمل وكان صديقى يحيى سليم يعرف ذلك فحسَّن لوالده ان يرسل معى مبلغا من المال لأرسل لهم به بعض البضائع بعد وصولى الى الهند قال محمد على وقد انتظر الشيخ سليم وقتا طويلا حتى وصلت اليه البضائع المطلوبة وكان ابنه يحيى سليم مطلعا على كل شيء ٠

ملك اللؤلؤ فى العالم

وفى الهند اشتغل محمد على زينل بتجارة اللؤلؤ حيث كان يشترى اللآلئ فى مواسم الغوص من الموانىء الخاصة بذلك وهى البحرين والكويت ودبى فى الخليج ثم يصنف هذه اللآلىء حسب احجامها بعد ثقبها وصقلها فى عقود واساور وحلقان ويبيعها حسب أصنافها وأحجامها فى العواصم الأوربية العالمية فكان له مكتب فى لندن وآخر فى باريس بالاضافة الى مكاتبه فى بومباى بالهند وفى موانىء الخليج حتى اصبح من اشهر العاملين فى هذا العمل واطلق عليه ملك اللؤلؤ فى العالم ، وكان العهد العثمانى قد انتهى فى الحجاز وبدأ العهد الهاشمى وتمكن محمد على بما افاء الله عليه من خير من التوسع فى التعليم بمدارس الفلاح فأسس مدرسة الفلاح بمكة المكرمة سنة ١٣٣٠ هـ بعد مدرسة الفلاح فى جده كما اسس

مدرسة الفلاح فى بومباى سنة ١٣٥٠ هـ ومدرسة الفلاح فى عدن ومدرسة الفلاح فى دبى سنة ١٣٤٧ هـ ومدرسة الفلاح فى البحرين وكان يزمع تأسيس مدرسة الفلاح فى المدينة المنورة كذلك إلا أن ذلك لم يتم وقد حدثنى الشيخ محمد صالح جمجوم وكيل مدارس الفلاح فى جدة ومكة ان مقدار ما كان ينفقه الحاج محمد على زينل على المدرستين فى مكة وجدة سنويا وصل الى ثلاثة عشر الف جنيه من الذهب ، واستمر فى هذا الانفاق مايقرب من ثلاثين عاما وحينما بدأ العهد السعودى فى جدة كانت مدارس الفلاح تقريبا هى المدارس الوحيدة فى مكة وجدة التى اشتهرت بحسن إدارتها وجودة برامجها التعليمية وكان متخرجوها هم الأساس الذى قام عليه بناء الأدارة الحكومية فكانوا يشكلون القسم الأكبر من موظفى الدولة كما كانوا يمسكون بالاعمال الكتابية فى البيوت التجارية فى المدينتين كما اشتغل الكثيرون منهم بالتدريس فى مدارس الفلاح نفسها وفى المدارس الحكومية الأخرى فى بداية العهد السعودى .

البعثات التعليمية

ولم يكتف الحاج محمد على زينل بما تقوم به مدارس الفلاح فى كل من مكة وجدة على علو برامج الدراسة فيهما فى ذلك الزمان باختيار أجود المدرسين وأستقدامهم من مصر وسوريا بالاضافة الى افضل المدرسين الوطنيين فقد كان يفكر فى اخراج جيل من الرجال المتعمقين فى دراسة الإسلام ليقوموا باداء رسالة الاسلام الحقيقية فى بلادهم ومن ثم عمد الى اختيار أفضل المتخرجين من طلاب الفلاح وابتعثهم إلى الهند ليكونوا تحت إشرافه الخاص بعد ان اعدّ لهم برنامجا

علميا حافلا واستقدم لهم اعظم المدرسين من البلاد الاسلامية وكان يهدف بذلك الى اعداد جيل من الدعاة الاسلاميين الواعين لرسالة الاسلام وكان يغري الطلاب بالاستمرار في الدراسة او الابتعاث الى الهند بترتيب مرتبات شهرية مغرية لهم وخاصة لمن يكون أهلوهم من ذوي الدخل المحدود وهكذا كانت هذه المرتبات الشهرية للطلبة ولابائهم في السنوات الثلاث الاخيرة من الدراسة في الفلاح وهي السنوات العلمية كما اطلق عليها اذ ذاك وهي بعد الست سنوات العادية حافزا كبيرا للآباء لإبقاء ابنائهم مستمرين في دراستهم كما كانت حافزا للموافقة على ارسال ابنائهم للاستزادة من العلم في بومباي في المدرسة التي اعدها الحاج محمد على هناك لهذه الغاية ٠

الدِّرَاسَة مجَانيَّة

ولست في حاجة لأن أقول إن الدراسة في مدارس الفلاح كانت مجانية لأبناء الفقراء والأغنياء على سواء ولم يكن يتكلف ولي امر الطالب سوى شراء الكتب المدرسية في أول كل عام وكانت هذه الكتب تباع باسعار زهيدة يسهل توفر ثمنها لكل انسان ٠

انهيار تجارة اللؤلؤ

وبينما كان الحاج محمد على زينل يواصل جهوده العظيمة في حقل التعليم كما اسلفنا وينفق المال الكثير في هذا السبيل تعرضت اعمال هذا الرجل العظيم للانهيار بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني في الخمسينات من هذا القرن الهجري وكان هذا الحدث بعد ان اشترى الحاج محمد على اكبر كميات من اللؤلؤ في مواسم الغوص من موانىء الخليج وهكذا وجد محمد على زينل نفسه بين يوم وليلة

يملك من اللآلىء الكثير الذى انفق فيه الملايين ولكن هذه اللآلىء لا تشترى ، فقد اتجه الناس الى شراء اللؤلؤ اليابانى الزائف الرخيص والذى لافارق بينه وبين اللآلىء الأصليه من ناحية المنظر فى شىء وتعرض الرجل لمصائب مالية تنوء بها العصبة اولو القوة ولو لم يكن الرجل على ايمان قوى بالله وعلى سمعة عالية لدى البنوك لكانت هذه المصاعب كافية للقضاء عليه ولكنه ثبت ثبات المؤمنين ، وقال وقد سلمت كل ما لدىَّ من لآلىء ومجوهرات الى البنوك تأمينا لهم لقاء ما استدنته من اموال وكانوا يقدرون الموقف فصبروا حتى يجعل الله من بعد عسر يسرا .

توقف الصرف على مدارس الفلاح

وفى هذه الظروف البالغة السوء أنىّ يستطيع الحاج محمد على زينل ان ينفق ما كان ينفقه على الفلاح ، بل انّى له ان ينفق اى شىء وقد بلغ به الامر ما بلغ فاضطر الرجل العظيم آسفا ان يعلن ذلك للقائمين على شؤون الفلاح وكان لهذا الأمر أبلغ الأثر فى نفوس الناس عامة .

الأمة تتولى الصرف على الفلاح

فقامت الأمة مجتمعة بما كان يقوم به فرد واحد هو الحاج محمد على زينل رضا ، وقد اجمع تجار مدينة جدة ان يتقدموا للدولة بفرض رسم مقداره قرش واحد على كل طرد يصل الى ميناء جدة ويستوفى هذا القرش لصالح مدارس الفلاح ، وكان الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية مدعوا على العشاء بمنزل الشيخ عثمان باعثمان أحد أعيان جدة ومدير العين العزيزية فيما بعد ـ فتقدموا اليه

مجتمعين بهذا الطلب الذى وافق عليه فى الحال واصبحت حصيلة هذا الرسم تستوفى فى جميع جمارك المملكة وتؤدى لمدارس الفلاح ومن المهم هنا ان نذكر ان هذا القرش يضيفه إلتجار على تكلفة بضائعهم وهم يستردونه بطبيعة الحال ضمن هذه التكلفة حين البيع فهو ليس منحة من فئة معينة وانما هو مشاركة عامة من الأمة كلها فى الإنفاق على مدارس الفلاح ٠

الدَّولة تتولى تغطية مصاريف الفلاح

ولقد قامت الدولة فيما بعد مشكورة بتغطية مصاريف مدارس الفلاح فى كل من مكة وجدة وأصبح هذا القرش الذى كان يستوفى باسم الفلاح عائدا لمصلحة التعليم كله باسم (قرش المدارس) لأن هذا القرش لم يعد يكفى لسد متطلبات الانفاق على الفلاح بعد تطور التعليم فيها وتوسعه ليشمل المراحل الثلاث مثل مدارس وزارة المعارف وهكذا شملت الدولة اخيرا مدارس الفلاح برعايتها فأصبحت تعامل معاملة المدارس الحكومية سواء بسواء ٠

محمد علي زينل لايقبل التبرع للفلاح

ولعله من الخير ونحن نستعرض حياة الحاج محمد على زينل وتاريخ الفلاح ان نذكر هنا انه كان لايقبل تبرعا من اى انسان ، فحينما كان قادرا على الانفاق أنشأ مدارس الفلاح وأنفق عليها من حرِّ ماله واستمر فى هذا الانفاق حتى عجز عنه تماما فتركه للأمة كلها تتولى الأمر نيابة عنه وهكذا كان ولقد حدث ان قدم الحاج محمد على زينل الى الحجاز فى احدى زياراته المعتادة التى كانت تتم كل بضعة اعوام مرة ، اقول قدم الى الحجاز فى الستينات وكانت مدارس الفلاح

معروضة للبيع فى مكة المكرمة وكانت مدارس الفلاح تشغل مبنيين فى القشاشية بمكة المكرمة قرب باب على ـ من ابواب المسجد الحرام ـ وكانت هذه المبانى مملوكة لأولاد الشريف على باشا امير مكة الاسبق ، وكان معلوما يومها ان ثمن هذين المبنيين هو مائة الف ريال وانى إنقل هنا من كتابى حبات من عنقود ما سبق ان كتبته عن هذا الأمر قبل سنوات :

سَأَبْنِي رِجَالاً

(كنت عضوا فى مجلس إدارة الشركة العربية للتوفير والاقتصاد بمكة المكرمة ، وكان رئيس المجلس الصديق المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين ، وذات ليلة حضر الينا الشيخ عبدالله فى المجلس وقال هو بادى التأثر ، لقد علمت اليوم أن البناية التى تشغلها مدرسة الفلاح بالقشاشية معروضة للبيع وأن ثمنها يبلغ مائة الف ريال ، وإننى لا أتصور ماذا يكون حال التلاميذ وحال المدرسة بعد أن تباع بنايتها ؟ ثم استطرد قائلا الا يوجد مائة شخص من خريجى مدارس الفلاح فى مكة وجدة يستطيع كل منهم أن يدفع الف ريال فيجمعون قيمة المدرسة ويقدمونها هدية للحاج محمد على زينل رئيس مدارس الفلاح الموجود حاليا بين ظهرانينا ، قلنا إن ذلك واجب لا مناص منه وأن خير هدية تقدم للحاج محمد على وقد اعتذر عن قبول حفلات التكريم هى قيمة بناية هذه المدرسة التى غذّاها بعقله وماله وجهده طوال ثلاثين عاما أو تزيد ثم قلت للمجتمعين ، إن لدينا إلى جانب جمع التبرعات لشراء المدرسة وسائل أخرى بعضها فى يدنا هنا فى مجلس إدارة الشركة ، فإن لدينا بنداً للأعمال الخيرية مخصصا له بموجب نظام الشركة خمسة فى المائة من صافى أرباح الشركة سنويا ، وفى يدنا أن نصدر قرارا فى الحال باعتماد المخصص جميعه لمدارس الفلاح ، كما أننا نستطيع أن نفعل مثل ذلك فى الشركة العربية للسيارات وفى شركة الطبع والنشر ، وكل منكم له صلة بهاتين

الشركتين من قريب أو بعيد ، وإذا رغبتم فانني سأشرح للشيخ محمد سرور وهو رئيس الشركات العربية جميعها الموقف كله وآخذ موافقته عليه ، ونكون بهذا قد جمعنا قسما هاما من المبلغ المطلوب من أيسر طريق ثم نلجأ بعدها إلى جمع التبرعات ، استحسن المجتمعون جميعا الفكرة ورحبوا بها وكلفوني أن أتحدث إلى الشيخ محمد سرور نيابة عنهم فيها ، وأعددت تقريرا مفصلا أوضحت فيه المبالغ التى يمكن جمعها من الشركات العربية وشرحت فيه الأمر شرحا وافيا ، وقدمته فى اليوم التالى للشيخ محمد سرور وقرأ التقرير بإمعان ثم قال : إننى موافق على كل ماجاء فى هذا التقرير ، ولكن هل تحدثتم إلى الحاج محمد على وأخذتم موافقته ؟ قلت : اننا نريد أخذ موافقتك أولا ثم نتحدث إليه ، قال : اننى موافق فخذوا موافقته وأخبرونى ، واتصلت بإخواننا فى مجلس ادارة الشركة العربية للتوفير والاقتصاد وأخبرتهم بالأمر فقرروا انتدابى مع الأستاذ الشيخ عبدالوهاب آشى والأخ السيد هاشم زواوى لمقابلة الحاج محمد على زينل وأخذ موافقته على الأمر ، وعهدنا إلى السيد هاشم بالاتصال بالحاج محمد على وتحديد موعد معه للمقابلة ، واتصل بى السيد هاشم فى اليوم التالى وقال : الاجتماع بعد صلاة الظهر مباشرة فى بيت الآشى بالقشاشية ، (هذا البيت هدم وأدخل ضمن التوسعة الأولى للمسجد الحرام) وذهبت إلى الموعد وبعد دقائق حضر الحاج محمد على وشرحت له الفكرة بحذافيرها ، وأشرق وجه الرجل العظيم وتهلل وهو يستمع إلى ثم قال : لقد فكرت يوما من الأيام أن أشترى محلا كبيراً هنا فى القشاشية أشيد فيه بناء المدرسة وأحيطه بدكاكين تكون موردا للمدرسة نفسها ، ولكن وقد حالت الظروف دون تحقيق هذا المطلب عزَّيت نفسى قائلا : إننى سأبنى رجالا ، وانى لأحمد الله تعالى أن جاء اليوم الذى رأيتكم فيه يا أبنائى ، يا أبناء الفلاح تغارون على مدرستكم وتفكرون فى شراء المبنى الذى يضم التلاميذ بعد أن علمتم أنه معروض للبيع وأنكم تخشون عليهم من الضياع .. ثم أردف

قائلا : ان أفكارى فى الواقع تتلاقى معكم ، وإننى هنا على اتصال بمالك الدار فى هذا الشأن وان لدى مبلغا أحضرته من الهند لهذه الغاية ، هذا ولم أر فى حياتى رجلا ساحر الحديث كالحاج محمد على زينل « مد الله فى عمره » هذه الحلقة نشرت قبل وفاته رحمه الله ، لم اجتمع اليه مرة الا وانطوى الوقت وهو يتحدث وأنا أستمع ، فلا نشعر بمرور الزمن ولا انقضاء الساعات ، وظل يومها يتحدث عن مدارس الفلاح وكيف أنشأها وهو موظف فى بيت أبيه بمرتب عشر روبيات فى الشهر الواحد ، وكيف كان وصحبه يأخذون التلاميذ من بيوت آبائهم بعد الغروب إلى المدرسة ثم يعيدونهم إلى دورهم فى صدر الليل لأن الدراسة كانت فى السر بعيدا عن أعين الدولة التركية ورقابتها ، وكيف سافر إلى الهند طلبا لتدبير المال لهذه المدارس وكيف تبرعت زوجه بحليها لتساهم فى شراء مدرسة الفلاح بجدة حينما عرضت للبيع ولم يكن يملك مالا لشرائها ، واستمر يتحدث ونحن نستمع إليه مأخوذين ولم نشعر الا وقد اذن للعصر ولم نتناول غداء ولم نفكر فى راحة وانتبه الرجل العظيم فقال لقد أضعت عليكم وقتا كبيرا ولكنى سأجتمع اليكم مرة اخرى ، قلت : ولكنى لم أسمع جوابا منك على اقتراحنا ، ان الشيخ محمد سرور ينتظر موافقتك لنبدأ الخطوات الأولى للمشروع ، قال : لا تفعلوا شيئا حتى أخبركم ، وأردف سأتقابل مع الشيخ محمد سرور ثم اجتمع اليكم مرة اخرى ، وانتظرنا وطال انتظارنا ، وكلما قدم لزيارة الشيخ محمد سرور تعرَّضت له مذكِّرا فيعدنى بأنه سيخبر الشيخ محمد سرور بما يستقر عليه رأيه ، وأخيرا سافر إلى جدة ومنها الى الهند وسألت الشيخ محمد سرور ألم تتلق شيئا من الحاج محمد على ؟ فقال فى هدوء كلا : ثم ابتسم وقال : انك لاتعرف الحاج محمد على إنه لايقبل تبَرعا من احد قلت : حتى ولا من أبناء الفلاح ؟ قال لقد

خبرت بنفسك الأمر فلا داعى للجواب .

مد الله فى عمر مؤسس الفلاح فلقد كان ومايزال بأخلاقه العالية وعصاميته الفذة وغيرته العظيمة مدرسة كبرى تبنى الرجال ـ(هذا ما نقلته من كتابى حبات من عنقود مما سبق نشره قبل سنوات فى جريدة البلاد وهو مثل من أمثلة كثيرة تدل على أن محمد على زينل لايقبل تبرعا من أى جهة كانت لمشاريعه العظيمة التى أسسها وحينما عجز هو عن الانفاق على الفلاح لم يلجأ إلى جمع التبرعات وإنما ترك المدارس وديعة فى يد الأمة كلها تحتضنها دون أن يتدخل فى الأمر بصورة من الصُور وهو تصرف يدل على نفس عظيمة كريمة أبيَّة .

ولقد استطاع الرجل العظيم بمرور الزمن ان يتغلب على الأزمة العظيمة التى تعرض لها وأخذ يعمل فى تجارة المجوهرات فى نطاق محدود ، وحينما علت سِنُّه أخذ يفكر فى العودة إلى وطنه والاستقرار فى الحجاز حيث تقيم أسرته الكبيرة وأحبابه الكثيرون ، وكنت أراه فى كل مرة يقدم فيها إلى الحجاز فأسأله عن موعد هذه العودة المرتقبة فيقول باق لى بالهند سنتان سنة تخليه وسنة تحليه ، والذى ظهر لى أن ارتباطاته الكثيرة فى الهند بعد أن قضى معظم عمره هناك لم تكن تسمح له بتركها ، وقد علمت من شقيقته السيدة عائشة زينل التى زارته فى السنوات الأخيرة من حياته أن بيته هناك كان مفتوحا للناس وخاصة للسيدات اللاتى لا عائل لهن ، كما علمت انه كان يساعد الحركات الاسلامية من ماله فى صمت ما وسعه ذلك ، وتعرض فى أواخر حياته لمرض خطير سافر من أجله لآل زينل بعد أن استقدموا له طبيبا من انجلترا لإجراء جراحة عاجلة كللت بالنجاح ولم تمض فترة من الزمن بعد ذلك الا وقد أدركته المنية فى مدينة بومباى ، وما أن علم جلالة المغفور له الملك فيصل بالأمر حتى أمر بارسال طائرة خاصة لنقل جثمانه إلى الحجاز ولكن الحاج محمد على رحمه الله أوصى أن يدفن حيث يقبض

فدفن فى مدينة بومباى بالهند وقد تركت وفاته رنة حزن وأسى لدى كل عارفيه ونعته صحف الحجاز خاصة وكتب الكثيرون عنه رحمه الله رحمة الأبرار وكانت وفاته بتاريخ ٢ شعبان ١٣٨٩ هـ أحسن الله جزاءه وأسبغ عليه شآبيب رحمته ورضوانه فقد كان من أعظم الرجال ..

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

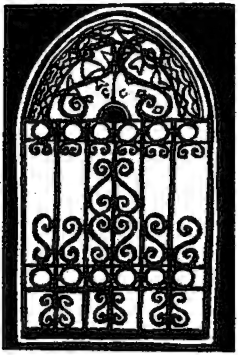

محمد عبدالصمد فدا

مُحَمَّدْ عَبْدُ الصَّمَدْ فِدَا

متوسط القامة معتدل الجسم أسمر اللون له لحية خفيفة يضع نظارة على عينيه ويرتدى العباءة والعقال ٠

ولد الأستاذ محمد فدا بمكة المكرمة عام ١٣٤٣ هجرية وتلقى تعليمه فى مدارس الفلاح بمكة المكرمة ثم ابتعث الى مصر والتحق بكلية الشريعة بجامعة الأزهر متخصصا فى القضاء وعاد منها الى الحجاز عام ١٣٧٠ للهجرة وعين عقب تخرجه قاضيا بمدينة رابغ الا انه كان يرغب العمل فى سلك التعليم فاعتذر عن قبول الوظيفة التى أسندت اليه ومن ثم عين مدرسا بالمعهد العلمى السعودى أوائل عام ١٣٧١ هـ وحينما ظهرت مواهبه فى التدريس عين فى ٧٢/١١/١ هـ مديرا للمدرسة الرحمانية الثانوية وانتقل فى ٧٦/٢/١ هـ إلى المدرسة العزيزية الثانوية مديرا لها ثم عين مستشارا بمكتب المستشارية لوزارة المعارف فى ٧٧/١١/١ هـ الى ٧٨/٥/١ هـ حيث اختير مديرا للمدرسة النموذجية بالطائف التى تحولت فيما بعد الى مدرسة الثغر النموذجية بجدة ٠

المدرسة النموذجية بالطائف

قام المرحوم ابراهيم أدهم وهو والد سعادة الأستاذ كمال ادهم بإنشاء المدرسة النموذجية بالطائف لغرض نبيل فقد أسست المدرسة فى البداية لتكون مدرسة للأمراء وقام المرحوم ابراهيم أدهم باحتضان التلاميذ اليتامى فى المدرسة المذكورة ، لإيوائهم وتعليمهم وسرعان ما أصبح عدد هؤلاء التلاميذ اليتامى كبيرا وأصبحت العناية بالمدرسة المذكورة ضرورة حتمية فشملها برعايته صاحب السمو الملكى الأمير فيصل النائب العام لجلالة الملك ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وحولها الى مدرسة نموذجية ومن ثم اختير الأستاذ محمد عبدالصمد فدا رحمه الله مديرا لها لما عرف عنه من القدرة الادارية الفائقة وقوة الشخصية الى جانب مؤهلاته العلمية وخبرته السابقة فى التعليم حوالى الثمانية أعوام ومنذ تولى الاستاذ محمد فدا ادارة المدرسة النموذجبه بالطائف استطاع ان يكتسب ثقة جلالة الملك فيصل رحمه الله فاتخذ بتأييد من جلالته الاجراءات التى تكفل لهذه المدرسة ان تكون نموذجية فعلا لا اسما وقد رؤى ان تنتقل المدرسة الى مدينة جدة ليكون الانتفاع بها شاملا لا يقتصر على سكان مدينة الطائف وحدها ولقد بدأت المدرسة النموذجية بالطائف تكتسب سمعتها الأولى فانتقل اليها بعض ابناء كبار رجالات مكة وخاصة من موظفى الدولة وحينما تم بناء المدرسة بجدة واعدادها انتقلت المدرسة النموذجية اليها بكامل طلبتها وخصصت لها ميزانية ضخمة فى كل عام واطلق عليها اسم « **مدرسة الثغر النموذجية** » .

وفى هذه الفترة عرفت المرحوم الأستاذ محمد فدا اداريا قديرا ومربيا عظيما ، ورجلا قوى الشخصية لا يتهاون فى تطبيق أنظمة المدرسة ازاء صغير أو كبير

فالطالب الذى يسقط فى سنة من السنوات ولا ينجح فى الملحق لابقاء له بين صفوف طلاب الثغر وإنما ينتقل الى مدرسة اخرى ، والدراسة فى المدرسة علمية فى مرحلة التوجيهية فالطالب الذى لا يتفوق فى المواد العلمية أو الذى لا يميل اليها لا بقاء له فى المدرسة ولو كان متفوقا فى المواد الأدبية ولن يشفع له قط ان يكون ابن أمير أو كبير ولن يشفع له كذلك ان يكون ابوه صديقا حميا لمحمد فدا بالذات ، ولعله كان أشد ما يكون صرامة مع الطلاب من أبناء اصدقائه وذوى قرباه وعلامات الطالب تراقب فى الاختبارات الشهرية وترسل نتائجها الى آباء الطلاب وكنا نترقب هذه العلامات فى كل شهر بقلوب واجفة خشية ان يكون أحد الابناء مقصرا فى بعض الدروس والويل لمن تأتى الشهادة الشهرية وفيها علامة حمراء فمعنى هذا أن الخطر على الأبواب ·

وتحل المصيبة العظمى اذا أساء الطلاب أحدهم او بعضهم سلوكه فى المدرسة ولم يعترفوا بما اقترفوا ويدلوا على الفاعل هنالك ينتقل الأمر الى آباء الطلاب وأولياء أمورهم وهناك ترسل الخطابات الى هؤلاء الآباء بطلب الحضور وكنا نعرف ان المقابلة ستكون عاصفة وإننا لا نملك فيها الا التسليم بما يرتئيه الاستاذ فدا ، وبهذه الوسائل كان البيت مرتبطا بالمدرسة اشد ارتباط وكان الآباء والأمهات على علم تام بأحوال ابنائهم الدراسية بل وبسلوكهم واخلاقياتهم ، وهكذا كان الاستاذ محمد فدا شخصية يحسب حسابها الجميع ويحبها الجميع اشد الحب لانهم يضعون بين يديه مستقبل أبنائهم ويعرفون أن هؤلاء الأبناء فى يد أمينة كريمة ·

ولتكتمل الصورة لدى القارىء عن هذه المدرسة او المؤسسة العظيمة (مدارس الثغر النموذجية) لابد ان نذكر ان المدرسة تضم قسما داخليا تهيىء

فيه للطلاب كل وسائل الراحة من المأكل والمضجع والتطبيب الى مختلف النشاطات الرياضية التي تحفل بها برامج هذه المدارس وكذلك البرامج الاجتماعية

والفنية وكان الاختيار لكل العاملين في هذه المدارس من مدرسين وعاملين فى مختلف أعمال المدرسة وشؤونها يتم على أسس مؤهلات علمية وخبرات سابقة وكان الاستاذ محمد فدا يشرف على الكبيرة والصغيرة فى شؤون هذه المدارس مواصلا الليل بالنهار فى تقصى هذه الأمور لضمان سيرها على الوجه المطلوب وكانت الحفلة السنوية التي تقيمها المدرسة والتى تعرض فيها نشاطات الطلاب يتخللها بعض البرامج التمثيلية الناجحة يدعى لها آباء الطلاب بل والأمراء والوزراء ويحضرها صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ولى العهد - ولم ينقطع عن حضورها الا بعد ان ولى العرش وأصبح وقته كله مشغولا بشؤون الدولة ، نقول ان هذا الحفل السنوى كان أشبه بمظاهرة ثقافية يحرص الجميع على حضورها فى كل عام ٠

وليس سرا ان مدارس الثغر النموذجية سبقت جميع المدارس الى تقديم الوجبة الغذائية التي كانت اجبارية على جميع الطلاب والتى كانت غنية بأصناف الطعام ولقد سألت الاستاذ فدا رحمه الله لم لا تكون هذه الوجبة اختيارية ؟ فقال حتى لا يشعر الطلاب الذين يحتاجون اليها بالفارق بينهم وبين زملائهم الذين يجدون مثلها فى بيوتهم فى كل يوم وليست هذه بأولى ملاحظات الاستاذ فدا بل ومحافظاته على شعور ابنائه من الطلاب وغرس روح المساواة بينهم ، كما كانت مدارس الثغر اول مدرسة فيما اعلم توحد زى الطلاب وهو الزامى فيها ، ولقد كان الاستاذ فدا يعرف قدرات طلابه ويرعاهم الرعاية الكاملة ٠

حدثنى مرة انه يعرف طالبين من أنجب الطلاب فى مكة المكرمة وكان يترقب لهما مستقبلا زاهرا اذا اتما دراستهما وكان يرغب ان ينقلهما الى مدارس الثغر توطئة لابتعاثهما الى الخارج ولكن والد الطالبين كان يعارض حتى فى مجرد انتقالهما الى جدة فضلا عن السفر الى امريكا واوربا فمازال به حتى اقنعه وانتقل الطالبان فعلا الى مدارس الثغر بجدة ولقد صحت نبوءة الاستاذ فدا رحمه الله حينما عاد احد الطالبين مهندسا عظيما من الولايات المتحدة ولم يمض طويل وقت حتى اسند اليه منصب رئيسى فى مجال عمله ، بل استطيع ان أقول ان معظم من عرفت من طلاب الثغر هم من أصحاب المكانة المرموقة فمنهم من أكمل الدراسة الجامعية الى اقصى مراحلها واصبحوا من الأساتذة المعروفين فى الجامعات ومنهم من برز فى ميدان الهندسة او فى الأعمال التجارية ، والجميع يذكرون استاذهم محمد فدا بالإكبار والحب ولعلى لا أفشى سرا حينما أقول ان ابنائى وقد قرأوا ما اكتبه عن أعلام القرن الرابع عشر سألونى لماذا لا أكتب عن أستاذنا محمد فدا ؟ ولقد اكبرت فيهم هذا الوفاء لأستاذهم العظيم ولم اكن له ناسيا فهو علم من أعلام هذه البلاد فى مجاله يرحمه الله ٠

عُضوجَامِعَةِ الملك عَبْدالعَزيز

وفى رحاب مدرسة الثغر ولدت فكرة جامعة الملك عبدالعزيز أو على الأصح ولدت الترتيبات الخاصة بها وكان المرحوم محمد فدا فى رحلة فى الخارج حينما ظهرت الفكرة ودعى الناس للاجتماع لانتخاب الهيئة التأسيسية للجامعة وكان المطلوب من الراغبين فى عضوية هذه الهيئة ترشيح أنفسهم لها ولما كان الأستاذ محمد فدا

غائبا عن البلاد فقد ارتأت الهيئة التى تشرف على فكرة الجامعة ان يكون الاستاذ فدا من ضمن المرشحين لهذه العضوية فأعلن المرحوم السيد احمد شطا اسمه كأحد المرشحين الذين لم يستطيعوا ترشيح انفسهم لغيابهم وقد نال فى هذا الانتخاب الكثير من الاصوات لما يتمتع به من سمعة طيبة ومقام ملحوظ . ولقد اختارت الهيئة التأسيسية للجامعة مدرسة الثغر مقرا لاجتماعاتها الأسبوعية والتى كانت حافلة بالجهود الكبيرة للتأسيس ولم تنقل منها إلا بعد ان تسلمت مبانى الجامعة التى قدمها لها المرحوم الشيخ عبدالله السليمان وتم إصلاح المبنى الاول فيها وهكذا ساهمت مدارس الثغر فى احتضان فكرة الجامعة التى هى مفخرة من مفاخر مدينة جدة ومعلم من اكبر معالم النهضة فى البلاد كما ان الحفل الذى نظم لجمع التبرعات للجامعة اقيم كذلك فى مسرح مدرسة الثغر بجده وحضره جلالة المغفور له الملك فيصل وتدفقت التبرعات السخية للجامعة فى ذلك الحفل الكبير ٠

هذا وقد تفضل الأخ الأستاذ محمد سعيد طيب بزيارتى قبيل طبع هذا الكتاب وقدم لى قصاصات كان يحتفظ بها مما نشرته الصحف بعد وفاة المرحوم الصديق الأستاذ محمد فدا مدير مدارس الثغر النموذجية وتحدث الى بمعلوماته عن الاستاذ فدا رحمه الله الذى كانت تربطه به زمالة الصداقة والعمل منذ فجر شبابه الباكر ولقد كنت حريصا دائما على اضافة معلومات الإخوان الكرام إلى ما أكتبه فى تراجم أعلام الحجاز وكنت ألجأ إلى اهليهم وأصدقائهم مستمدا ما لديهم من هذه المعلومات التى قد يكون بعضها بعيدا عنى ، وحسنا فعل الأستاذ محمد سعيد طيب لأنه أتاح لى الاطلاع على أشياء جديدة كان من الواجب أن تضاف إلى ما كتبته عنه ٠

محمد فدا الشاعر[٧]

إن أهم ما لفت نظرى فيما قدمه الأستاذ محمد سعيد طيب عن المرحوم الأستاذ محمد فدا أنه كان شاعرا مشرق الديباجة رائع المعانى والكلمات ولقد أورد المرحوم الاستاذ فؤاد شاكر بعض قصائده التى نظمها وألقاها فى مناسبات معينه ذلك أن صاحب السمو الملكى الأمير عبدالله الفيصل زار دار البعثات السعودية فى مصر فاحتفل به الطلاب وكان محمد فدا أحد أعضاء البعثة فرحب بسموه بقصيدة شعرية ثم دعا سموه أعضاء البعثة فى رحلة ترفيهية إلى القناطر الخيريه فألقى محمد فدا كذلك قصيدة فى هذه الرحلة وإننى اورد هنا بعضا من أبيات هذه القصائد التى أوردها المرحوم الأستاذ فؤاد شاكر الذى كان مشاركا فى هذه الحفلات :

يقول فى وصف مرابع القناطر الخيرية :

مشهد الحسن والخفر ☆ فتنة الماء والزهر
معهد الفن والهوى ☆ متعة الروح والبصر
يسعد العاشقون فى ☆ جوها الحالم العطر

ويخاطب الأمير الشاعر قائلا :

شاعر الحسن قف تزود ☆ لأيامك الأخر
واندفق يافؤاد الشعر ☆ نشوان وابتكر
واقتبس للقصيد من ☆ رائد الفن والشعر

ومنها :

شــاعــر انــت عندمـا ☆ اخترت ذا المربــع النضر
ومثــال لفيصــل ☆ فى طبــاع له غرر

والسؤال الذى ورد على ذهنى بعد قراءة ما أورده الأستاذ فؤاد شاكر هو اين ذهب شعر الأستاذ فدا ؟ فمن المؤكد ان له قصائد اخرى كثيرة أو قليلة وقد عرف الناس محمد فدا خطيبا مفوها يعتلى المنبر فيرتجل من الكلام أحسنه غير مستعين بورقة مكتوبة أو بإعداد سابق ـ سوى الإعداد الذهنى ـ اذا صح هذا التعبير كما انى علمت أنه كان لايستسيغ الخطابة التــى تعتمـد على الاوراق المكتوبة أما اللحن اللغوى أو النحوى فانه ينفر منه نفورا شديدا بل ويزدريه وكل هذا الذى ذكرته إنما يدل على أصالة الحاسة الادبية وتمكنها وكل هذا يجعل ممارسة الشعر أمرا سهلا لمن توفرت له هذه الصفات ولئن استطاع الأستاذ محمد فدا ان يبعد الانظار عنه كشاعر فلن يستطيع فيما أرى ألا يمارس نظم الشعر أو التدفق به فى بعض المواقف لأن تجربتى فى الشعر انه يملى على الشاعر ما يقول وفى الوقت الذى تتجلى فيه الدوافع التى لا يملك الشاعر لها مقاومة أو دفعا ٠

ولهذا فان للشاعر محمد فدا أو يجب أن يكون له قصائد قليلة او كثيرة ضمن محفوظاته وإن كان لم يظهرها للناس ولابد ان تكون كريماته وهن المثقفات يعلمن عن هذا الأمر فلا أقل من إظهار هذه الآثار للنشر لتكون الصورة عن محمد فدا الشاعر مجلوة إلى جانب الجوانب الأخرى لهذه الشـخصية الكريمـة والعظيمـة الصفات ٠

مرضه ووفاته

فى أحد اجتماعاتى بالاستاذ فدا بعد ان توثقت أواصر الصداقة بينى وبينه قال لى : إننى اقرأ ما تكتبه عن رحلاتك فى الخارج وأود لو رافقتك فى بعض هذه الرحلات فاننى أزور انكلترا ولكنى لا اعرف شيئا عن معالمها السياحية فحركتى محدودة بين الطبيب والسفارة ومنازل بعض الأصدقاء الى جانب جولات فى شارع اكسفورد (استريت) الذى انزل فى أحد فنادقه بعد العشاء ، قلت إننى مسافر هذا الصيف ورحلتى فيه تشمل مدنا فى أواسط اوروبا وشمالها وإنه ليسعدنى كثيرا ان تكون رفيقى فى هذه الرحلة وتواعدنا على الاجتماع فى لندن وحضر رحمه الله فى الموعد الذى عينه ونظمنا برنامج الرحلة بحيث نزور الدانمرك والمانيا وسويسرا معا وقبل سفرنا من لندن بثلاثة أيام حضر المرحوم الصديق الشيخ محمود عطار وكان معنا فى لندن وقال لى أبلغ الأستاذ فدا أن الطبيب فلان يريد أن يراه فقد علم منى عرضا أنه هنا فى لندن وهو يصر على ذلك وأبلغت الأستاذ فدا ما سمعت فوجم فألححت عليه أن يذهب طالما أن الأمر يتعلق بصحته فوافق وفى اليوم التالى قال لى وفى صوته رنة حزينة لا تنتظرنى فإنى سأطيل المقام هنا حسب نصحية الطبيب وكنت أعلم عن مرضه فطمأنته وأعطيته أسماء الفنادق التى سأنزل بها وقلت له إننى سأتصل به فيما بعد ومن مدينة ميونيخ بألمانيا اتصلت به وقلت له إننى سأكون موجودا فى جنيف بعد ثلاثة أيام قال وستجدنى هناك وفى فندق مجاور للفندق الذى تنزل فيه وفى الموعد المعين حضر وكان بادى الانشراح منبسط الأسارير وقضينا بضعة أيام فى سويسرا نزور معالمها كما نظمنا رحلة بالسيارة تشمل كثيرا من المدن السويسرية وتخترق بعض المدن الفرنسية وتناولنا الغداء فى مدينة لوزان وخلال جلسة الغداء أدهشنى الأستاذ فدا

بمحفوظاته من الشعر وقد أسمعنى قصائد قديمة من الشعر الغزلى نشرت لى فى الخمسينات فأدركت أن للرجل ذوقا أدبيا إلى جانب شخصيته الحازمة فى التربية والتعليم • ثم اقترب موعد عودتنا الى المملكة فافترقنا على أمل أن نجتمع مرة أخرى فى الصيف القادم وقد صمت فجأة ثم قال يبدو لى أنه ليس فى عمرى بقية لرحلة أخرى اننى اقترب من النهاية قلت اتق الله يارجل فإنك فى خير حال وفى الصيف التالى قال إننى قررت الذهاب هذه المرة إلى أمريكا فإنى لم أزرها من قبل فتمنيت له كل خير وقلت له إن الطب هناك متقدم كثيرا عنه فى انكلترا التى تزورها دائما لهذه الغاية •

وسافر إلى أمريكا وما لبثنا أن علمنا أنه أدخل المستشفى ثم اشتد عليه المرض فكان هناك يتنفس فى خيمة من الأوكسيجين وأن صحته تتداعى ومع ذلك فقد أصر على أن تعود زوجته وبناته إلى جدة للالتحاق بمدارسهن حيث كان موعد افتتاح المدارس قد أزف وفى مساء الخميس ١٣٨٥/٧/١١ هـ أسلم الروح بمدينة واشنطن فى امريكا ونقل جثمانه بالطائرة حيث دفن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة مساء الثلاثاء ١٣٨٥/٧/١٦ هـ فى مشهد مهيب اشترك فيه أصدقاؤه وطلابه رحمه الله فلقد كان مربيا قديرا وأستاذا عظيما تغمده الله برحماته وأحسن جزاءه فى جنات الخلود •

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

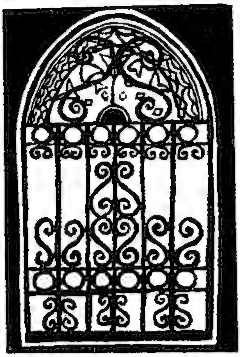

الشيخ محمد ماجد الكردى

الشيخ محمد ماجد كردي

ولد الشيخ محمد ماجد بن صالح كردى بمكة المكرمة عام ١٢٩٤ للهجرة وتلقى العلم على أيدى علماء مكة المكرمة فى عصره وحفظ القرآن الكريم وكان شغوفا بالعلم والدراسة منذ نعومة أظفاره كما كان شغوفاً بالقراءة فكان يقتنى الكتب المطبوعة والمخطوطة ومما لاشك فيه أن رغبته الصادقة فى التزود من المعرفة هى التى هيأته لجمع هذه المجموعة العظيمة من الكتب مع ما وهبه الله من ثراء يسرً له شراء الكتب المخطوطة والمطبوعة وضمها إلى مكتبته العظيمة قالوا : وكانت مكتبة الشيخ ماجد كردى فى مكة المكرمة تعتبر أكبر وأغنى مكتبة خاصة بما تحويه من مجموعات قيِّمة فى التفاسير والأحاديث النبوية وكتب الفقه واللغة ودواوين الشعر وكتب التراث وكانت تمتاز بالمخطوطات النفيسة النادرة التى تضمها هذه المكتبة القيِّمة ، وكان الشيخ ماجد كردى على اتصال بأصحاب المكتبات وعشاق الكتب فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فكان يستورد كل جديد ونادر من الكتب المخطوطة والمطبوعة ويضمها إلى مكتبته الفريدة القيمة والتى أطلق عليها اسم المكتبة الماجدية ٠

المطبعة الماجدية

وكان الشيخ ماجد كردى من أوائل الناس الذين فكروا فى تأسيس المطابع فى الحجاز وفى مكة بصورة خاصة وله بحث قيم عن تاريخ المطابع نشر بجريدة أم القرى وكتب عنه كتابة مطولة الأستاذ عثمان حافظ فى كتابه نشأة الصحافة وتطورها فى المملكة العربية السعودية .

نعم لقد رأى الشيخ ماجد كردى بما وهبه الله من بصيرة نافذة أن نشر العلم يجب أن يستند إلى وسائل تتيح تعميمه وتيسيره للناس ولما كان الكتاب هو وسيلة نشر العلم وكانت الكتب فى الماضى تعتمد على نسخ النساخ أو نسخ طلبة العلم أنفسهم فان هذه الوسيلة البطيئة لم تعد قادرة على إشباع نهمة الطلاب الذين يتكاثرون وخاصة مع انتشار المدارس وتكاثر عدد الطلاب فقام أولاً بشراء مطبعة شمس الحقيقة الموجودة بمكة والمؤسسة عام **١٣٢٧** هـ ولكنه وجد أن هذه المطبعة قديمة ولا تقوم بإنجاز ما كان يطمح إليه ، فاستورد المطبعة الماجدية إلى مكة المكرمة ، حدثنى ابنه الشيخ عادل ماجد كردى عضو مجلس الشورى قال حينما قام الوالد باستيراد المطبعة الماجدية واجه صعوبات جمة فى نقلها إلى مكة المكرمة فإن الأجهزة التى تتألف منها المطبعة ثقيلة الحجم ولم تكن هناك السيارات ولا الرافعات فإن عصر السيارة لم يكن قد حان فى الحجاز ولم تكن هناك وسيلة للنقل سوى الجمال والخيل والبغال فاختار الوالد أن تكون البغال هى وسيلة النقل إلى مكة لما تتمتع به من قوة على حمل الأثقال ، ومع ذلك فإن حجم المطبعة كان أثقل من أن تتحمله البغال فى طريق صحراوى رملى غير معبد ، فكانت البغال تنوء بحملها الثقيل وبعضها يضعف عن مواصلة الحمل والبعض الآخر ينفق

تحت وطأة هذه الحمولة الثقيلة فتستبدل البغال بغيرها وهكذا تم النقل على مراحل وفى عناء شديد ولولا رغبة الوالد الشديدة فى إنشاء المطبعة بمكة المكرمة لكانت هذه الصعوبات كافية فى إثنائه عما يريد ، ولكن همم الرجال لا تقف أمام العقبات وإنما تتخطاها وتذللها وهكذا كان الشيخ ماجد كردى بهمته العظيمة وبحبه الكبير لنشر العلم مثالا فريدا فى قوة الارادة وفى البذل لبلوغ الهدف الذى يريد ، ولم تقف العقبات عند وصول المطابع الى مكة المكرمة وتركيبها فكان لابد من توافر الأيدى الفنية لتشغيل هذه المطابع وكان الطبع فى ذلك الوقت يعتمد على صف الحروف التى تسبك سباكة مستقلة ، ولم يكن قد عرف (اليونوتيب) وما إليه من أجهزة الصف الحديثة فكان جمع الحروف وتوضيبها يتم باليد ، تصنف الحروف المسبوكة سابقا فى ادراج معينة فى المطبعة ويجمعها عمال الصف فى سطور بطريقة معلومة لعدم تداخل الحروف فى بعضها فاستقدم الشيخ ماجد عمالا لهذه الغاية وأمر أولاده أن يتعلموا كيف يقومون بصفً الحروف وبادارة آلات المطابع كلها وكل ما يتعلق بها موفرا لمطبعته الاكتفاء الذاتى حتى لاتتعطل عن العمل ، قال الشيخ عادل فكنا نعمل فى المطبعة بأيدينا عمال صف وطبع ولم يأنف ماجد كردى أن يكون اولاده عمال صف وطبع وهو من هو فى ثرائه ومكانته الاجتماعية الكبيرة بل رأى أن هذا العمل هو نوع من حسن التربية للأولاد الذين أمرهم من قبل بحفظ القرآن الكريم على عادة الكثيرين من أهل مكة المكرمة فى ذلك الزمان وهكذا أنشأ الشيخ ماجد كردى المطبعة الماجدية ،

وهكذا كنا فى مقاعد الدراسة فى ذلك الزمان نجد بين أيدينا كتب الفقه والحدث والتاريخ والتجويد والنحو وما إليها وقد كتب على غلافها (طبع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة) وهذا هو المجد الذى حققه ماجد كردى رحمه الله

إذ يسرَّ لمدارس الحجاز حاجتها من الكتب المدرسية فلا تتعطل الدراسة انتظارا لوصول الكتب من الخارج وإنما هى مطبوعة فى مكة المكرمة وموجودة بين أيدى المدرسين والطلاب فى الموعد الصحيح ولم تقتصر المطبعة الماجدية على طبع الكتب المدرسية وانما كانت تقوم كذلك بطبع المطبوعات التجارية والكتب الأخرى ومن أهم ما طبعته كتاب تاريخ مكة للأزرقى فى مجلدين وهو من أقدم وأهم كتب التراث قام بتحقيقه الأستاذ رشدى ملحس رحمه الله وكان يعمل بجريدة أم القرى فى مكة المكرمة فى أواخر الأربعينات ، وهكذا أنشأ ماجد كردى رحمه الله بمكتبته العظيمة ومطبعته منارة لنشر العلم فى بلد الله الحرام وبذل فى سبيل ذلك من المال والجهد ما جعله علما من الأعلام ٠

بيت الكردي في القرارة

ولن يتم الحديث عن الشيخ ماجد كردى إلا إذا المحنا بشيء عن أخلاقه الشخصية فلقد كان الرجل طالب علم محبا للعلماء وكان بيته فى مكة المكرمة بالقرارة مفتوحا للناس وخاصة للعلماء ورجال الدين والمقرئين من حجاج بيت الله الحرام وكان الرجل بحكم صلته العلمية بالعلماء محط الأنظار فكان يستضيف العلماء ورجال الدين وأعلام الأدب الذين يصلون الى مكة المكرمة من جميع أنحاء العالم الإسلامى فيجدون فى داره حسن الضيافة وطيب المقام ، وكانت هذه الدار علاوة على ما توفره لمن تستضيفهم تعتبر منتدى علميا وأدبيا فى موسم الحج خاصة ، فتعقد فيها الندوات يستمع الناس فيها إلى قراءة القرآن الكريم من مقرئين أصواتهم حسنة ، وإلى تفسير للآيات من عالم بالتفسير وإلى أبحاث دينية وعلمية يسهم فيها أصحاب الاختصاص من الحاضرين كما يلقى فيها

الشعر ويتبارى فيها الأدباء وأصحاب الفكر فهى منتدى حافل بكل طريف ومفيد وكان الشيخ ماجد يحرص على أن يوفر للقادمين إلى هذا النادى ما يحببه اليهم من حسن الضيافة وكرمها وجميل الاستقبال والترحيب ·

دَار الكُردي بمُنىٰ

وللتاريخ فإن دار الشيخ ماجد كردى بمنى حتى بعد وفاته رحمه الله كانت تؤدى نفس الغاية ولكن على نطاق اكبر فكان يعقد فيها فى ليالى التشريق هذه الندوات ومن أشهرها الندوة الخطابية التى يقيمها شباب مكة المكرمة وأدباؤها فى كل عام للوافدين من حجاج بيت الله الحرام وكان كل من قدم من أعلام الرجال للحج يحضر هذه الندوة وقد شهدت الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف الكتب الاسلامية الشهيرة فى منزل الوحى وغيره يحضرها ويخطب فيها كما شهدت زعيم فلسطين الحاج محمد أمين الحسينى رحمه الله حضر فيها ومعه زعيم لبنان المرحوم رياض الصلح وقد طلب الحاضرون منهما الخطابة فألقى الحاج محمد أمين الحسينى كلمة فيها كما كانت للمرشد العالم للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا رحمه الله فيها مواقف خطابية شهيرة كل عام ، ولقد كانت الدار على رحبها تضيق بالمئات من الناس الذين يؤمونها فى تلك الليلة المشهودة وإنى لأذكر أن هناك مَنَصَّةً فى رحبة الدار ناءت بما تحمله من الناس ، وكانت من الخشب فتكسرت ولم تحدث أى أضرار وكان الشيخ حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة حاضراً فى تلك الليلة فقام وطلب التبرع لإصلاح الدار ولكن سارع الشيخ كامل ماجد كردى أكبر أبناء المرحوم ماجد كردى إلى القول بأن أصحاب الدار يشكرون له وللحاضرين هذا الشعور ولكنهم بحمد الله قادرون على

إصلاح ما تضرر ويعتذرون عن قبول التبرع ، قال هذا الدكتور محمد على الشواف رحمه الله بلسان الشيخ كامل كردى وإخوانه وهكذا فإن حسنات الشيخ ماجد كردى امتدت الى مابعد وفاته فقد سار أبناؤه ما أمكنهم فى الطريق الذى رسمه لهم والدهم العظيم ·

مصير المطبعة

هذا وقد أدركت المطبعة الماجدية يديرها الشيخ طاهر كردى ابن الشيخ ماجد كردى رحمه الله فى مكة المكرمة فى الخمسينات وعهدى بها أنها استمرت بعد ذلك ولكنى لا أدرى ماذا تم فيها بعد ذلك وبعد التطور الكبير الذى أدخل على المطابع وانشغال أبناء الشيخ ماجد بالعمل الحكومى ووفاة البعض الآخر فقد كان الشيخ صادق ماجد كردى مديرا لدار البعثات السعودية بالاسكندرية لفترة طويلة كما ان الشيخ عادل ماجد كردى هو عضو مجلس الشورى فى الوقت الحاضر ·

هذا بالنسبة للمطبعة أما المكتبة فكما قدمنا انها كانت تضم نوادر المخطوطات الى جانب ما تحويه من الكتب المطبوعة القيمة فى شتى العلوم والفنون ولعل الشيخ عادل كردى يتحدث الينا عما آل إليه أمر هذه المكتبة الفريدة فى زمانها فإذا كانت المطابع قد فقدت قيمتها بما جدَّ من فنون الطباعة الحديثة وآلاتها فإن الكتب والمخطوط منها لا تفقد قيمتها وإنما تزيد على الأيام(١)

(١) لقد تم نقل هذه المكتبة الى دار الكتب التى انشأها المرحوم الشيخ عباس قطان فى موقع الدار التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم راجع ترجمة الشيخ عباس قطان ··

وَظائِفُ الشّيخ مَاجدكردي

وفى أوائل العهد السعودى عين الشيخ ماجد كردى مديرا للمعارف تقديرا لعلمه وفضله ثم أسندت إليه مديرية الأوقاف العامة بمكة المكرمة وفى عهد إدارته للمعارف تم إرسال أول بعثة علمية من أبناء المملكة للدراسة فى معاهد مصر ومدارسها وكان هذا فى الأربعينات من هذا القرن •

وفـاة الشيخ ماجِدكردي

الحجاج على صعيد عرفات فى يوم التاسع من ذى الحجة ومخيم الشيخ ماجد كردى فى عرفات يغص بالوافدين من ضيوف الرحمن الذين يستضيفهم كل عام والجو عاطر بالتلبية والناس يضجون بالدعاء والكل مبتهـل إلى الله سعيد فى ضيافه الرحمن والشيخ ماجد كردى فى لباس الإحرام الأبيض يتفقد راحة ضيوفه من الحجاج وهو فى أكمل صحة ولكن الله تعالى أراد له حسن الختام فاختاره الى جواره فى هذا اليوم العظيم وفى ذلك المشهد العظيم وهو فى لباس الإحرام فدفن حاجا محرما ملبيا فى عرفات وكان هذا فى التاسع من ذى الحجة ١٣٤٩ هـ وهو فى الخامسة والخمسين من العمر فكانت لوفاته رنة حزن وأسى فى جميع أنحاء البلاد ولدى عارفى فضله فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، تغمده الله برحمته الواسعة واحسن جزاءه فى دار الخلود فلقد كان واحدا من أفذاذ الرجال ••

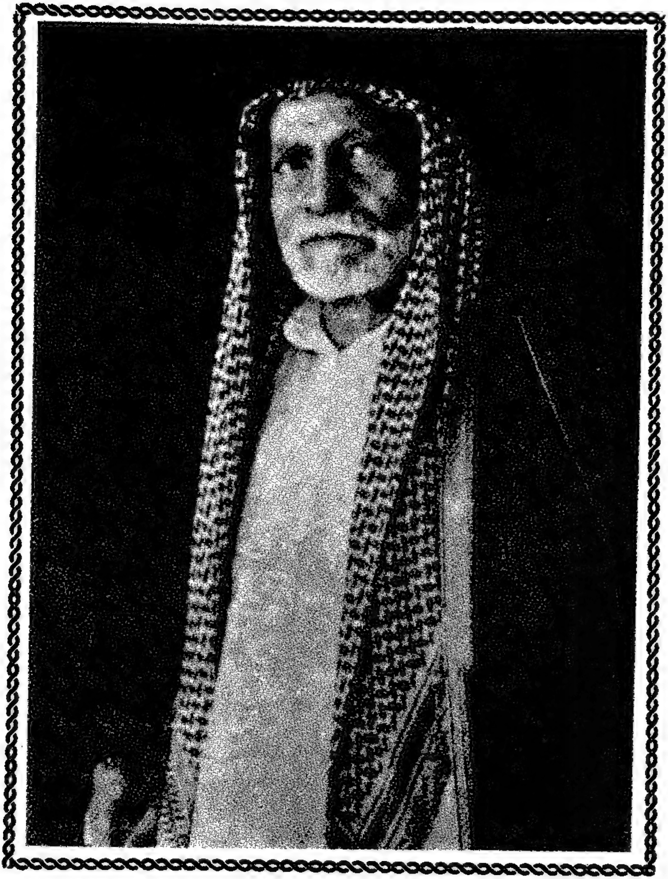

محمد الطويل

محمد الطويل

قصير القامة ، معتدل الجسم ، اشقر الوجه واللحية ، أزرق العينين ، أقنى الانف ، أصلع الرأس ، أنيق الملبس ، كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، ثم تحول عنها إلى العباءة والعقال ، ذو سمت وهيبه ، وقد استحوذ بكرمه وهمته على قلوب الناس فكان زعيما محبوبا ، كما نال ثقة الحكام فكان رجل الدولة فى العهد الهاشمى ، وأحد كبار الرجال الذين تسند اليهم المهام فى عهد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز .

لم أستطع الحصول على تحديد دقيق لولادة المرحوم الشيخ محمد الطويل وكل ما نستطيع أن نذكره أنه ولد فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى وكان فى مطلع شبابه موظفا بدائرة الجمارك فى جدة فى العهد العثمانى ، وحينما قام المغفور له الملك حسين بن على بالثورة على الحكومة العثمانية عام ١٣٣٤ هـ كان الشيخ محمد الطويل من أبرز الرجال الذين نالوا ثقته فكان ناظرا لعموم الرسوم فى جدة ، وقد اطلق عليه لقب الناظر ـ نسبة إلى هذا المنصب الرفيع إذ ذاك ، وكانت موارد الدولة الهاشمية فى ذلك الوقت تعتمد على الرسوم الجمركية وكان جمرك جدة الذى يتولى رئاسته الشيخ محمد الطويل هو أهم موارد الدولة لأن جدة

كانت ولاتزال أكبر موانىء الحجاز ، وكان مقر الحكومة فى مكة ، ولكن الموارد كلها تأتى من جدة سواء من الرسوم الجمركية التى تمثل القسم الأعظم من هذه الموارد ، أو من الضرائب التى كانت تجبى على وسائل النقل التى تتمثل فى الجمال سواء ما كان منها خاصا بنقل البضائع أو الحجاج ، وكان الشيخ محمد الطويل أشبه ما يكون بوزير كبير فى عهد الدولة الهاشمية فإلى جانب رئاسته للواردات المالية الضخمة ، كان يتولى تموين الحكومة بما تحتاجه من أرزاق ومستلزمات وكان الشيخ محمد الطويل بحكم منصبه الكبير وجاهه العظيم مقصوداً من الناس ، وكان الرجل كريما عالى الهمة شهما ذا نجدة ومروءة فكان بيته مفتوحا للناس ويده مبسوطة لهم ورفده موصولا لكل طالب ، فأحبه الناس وتعلقوا به ، والتفوا حوله ، ولم يكن يبذل للناس من ماله فحسب وإنما كان يبذل لهم من جاهه كذلك ، حدثنى من أثق بروايته أن الشيخ محمد الطويل كان يتوجه الى مكة لمقابلة الشريف حسين بن على بين وقت وآخر حسب متطلبات منصبه ، وكان أهل مكة يترقبون مقدمه حيث ينزل فى بيت باناجه ـ فى باب على ـ هذا البيت هدم وأدخل مع غيره فى التوسعة الجديدة للمسجد الحرام فإذا قدم وفدوا عليه بحاجاتهم وكان أكثر هذه الحاجات طلب وساطتـه لدى الشريف للعفـو عن الغرامات وإطلاق المساجين وكان الشريف الحسين رحمه الله مشهورا بصرامته وشدته فى هذه الأحكام ، وفى إحدى زياراته لمكة تجمع لديه حصيلة من هذه الوساطات فجمع اوراقها وكتب معها رقعة موجهة للشريف قال فيها ما معناه ـ إن ما حبانى به جلالتكم من عطفه وما شرفنى به من خدمته جعلنى مقصدا للناس ومحل حسن ظنهم وإنى أقدم لجلالتكم ما قدم به على الناس من مطالب فان رأيتم أن تكرمونى بالعفو عنهم فليس هو بكثير على جلالتكم قال الراوى وقد استجاب الشريف لهذا الطلب فأطلق المسجونين وعفى عن الغارمين « وفى عام

١٣٤٢ هـ هاجر الكثيرون من أهل مكة إلى جدة بعد أن دخل الجيش السعودى مدينة الطائف ، ولم تكن هذه الهجرة منظمة فكان الناس يفدون بعائلاتهم وينزلون فى بيوت من يعرفون من أهالى جدة ولكن البعض لم يكونوا يعرفون أحدا ، كما أن منهم من كانت تنقصه وسائل النقل فكان البعض منهم يفد ماشيا أو يستعمل وسائل غير مريحة وما أن علم الشيخ محمد الطويل بذلك حتى استنفر الرجال لاستقبال القادمين من مكة فى ضاحية الرغامة وزود المكان بالماء والدواب والأغطية ثم تولى أسكان القادمين وإنزالهم فى بيوت الأهالى الذين كانوا يتسارعون إلى تلبية نداء النجدة والمروءة »

وقبيل نهاية الحرب السعودية الهاشمية هاجر الشيخ محمد الطويل بعائلته إلى مدينة اسمرا وقد أوشكت الحرب على النهاية وبدا أن البلاد كلها ستدين بولائها لجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز وكان الطويل بوصفه من أكبر رجالات العهد السابق يخشى أن يكون لهذا الأمر تأثير عليه فى العهد الجديد فبقى خارج البلاد حتى أذن المغفور له الملك عبدالعزيز بالعودة إلى وطنه فعاد إلى مدينة جدة مكرما آمنا على نفسه وماله(١) وكانت عودته مقترنة بدخول السيارات إلى الحجاز فقد كان الشريف حسين يحرم دخولها واستعمالها ويصر على استعمال الجمل كوسيلة للنقل سواء للحجاج أو البضائع واجتمع لفيف من تجار جدة وكلهم من أصدقاء المرحوم الشيخ محمد الطويل وألفوا شركة للسيارات سميت (شركة القناعة للسيارات) وعينوا الشيخ محمد الطويل رئيسا لها وخصص له مرتب شهرى مقداره ستون جنيها ذهبا فى الشهر ، وكان هذا المرتب كبيرا جدا فى ذلك الحين ،

---

(١) لقد علمت فيما بعد ان الشيخ محمد الطويل كان ممن بايعوا جلالة الملك عبدالعزيز بعد تسليم جدة ويبدو ان الشيخ محمد الطويل سافر مرة اخرى الى مصر بعد ان دانت البلاد لجلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله انظر ترجمة الشيخ محمد صالح ابوزناده ٠

وكان معروفا أن الغرض من ذلك هو تكريم الشيخ محمد الطويل وتأمين كفايته من المال حتى لاتتغير عليه الأمور والأحوال ، ثم استقدمه جلالة الملك عبدالعزيز إلى الرياض وأبقاه فترة ثم ما لبث أن أذن له بالعودة الى جدة مع موكب جلالته واستقبله الناس استقبالا عظيما وعاد مرة أخرى إلى عمله فى رئاسة شركة القناعة للسيارات ، وفى شركة القناعة للسيارات اتصلت اسبابى باسباب المرحوم الشيخ محمد الطويل فقد كنت كاتبا بادارة حسابات الشركة وكان هو رئيسها وقد أتاح لى ذلك الاطلاع على جانب من كرم الرجل إذ كانت ترد الى الرقع بخطه الجميل يمنح بها أصحاب الحاجات من مرتبه حتى أنه أصبح بعد فترة من الزمن مدينا للشركة بمبلغ كبير من المال ٠

ولم تطل الأيام بالشيخ محمد الطويل فى شركة القناعة للسيارات فقد اختاره جلالة الملك عبدالعزيز لإدارة جمارك وماليات الإحساء والمنطقة الشرقية ، وكان الملك عبدالعزيز رحمه الله ذا فراسة فى الرجال وهكذا قام الشيخ محمد الطويل بتأسيس الجمارك ووضع الأسس لتنظيم الأموال وكان يفـد كل عام إلى جدة لزيارة اهله فيفد الناس للسلام عليه وتمتلئ داره بالمهنئين والزائرين طيلة بقائه حتى يعود ، ومضت سنوات ثم اختاره جلالة الملك عبدالعزيز ليكون مستشارا له ضمن مجلس المستشارين الذى كان يسمى مجلس الربع ولكن الشيخ محمـد الطويل ما لبث أن استأذن من جلالة الملك عبدالعزيز طالبا السماح له بتأسيس شركة نجد للسيارات وحصل على امتياز للشركة بالنقل بين الحجاز ونجد وقام فعلا بتأسيس الشركة المذكورة ولكنها ولدت ضعيفة فلم يكتب لها البقاء إذ كان مساهموهـا من أصحـاب السيارات الـذين لم ينضمـوا إلى الشركة العـربية للسيارات حين توحيدها ولم تتوفر لها الإمكانيات المالية والادارية التى تضمن

حسن سيرها فتمت تصفيتها ، وعاد الشيخ محمد الطويل إلى جدة وقد خلا من كل عمل حكومى أو أهلى ، ولكنه أشغل نفسه بخدمة الناس ، فقد فتح بيته لاستقبال أصحاب الحاجات وخاصة من الأرامل الضعيفات فكان بيته يؤوى الكثيرات منهن ، وكان يستقل سيارته كل صباح إلى مختلف الدوائر الحكومية ليقضى حوائج الناس ، فكان هو لسان من لايستطيعون إيصال أصواتهم إلى رؤساء الدوائر من عائلة فقدت عائلها وتعثرت أوراق المتوفى بين أدراج الموظفين أو بين براثن الروتين وكثيرا ما سعى إلى إطلاق السجين وإغاثة الملهوف ، أما الأرامل الضعيفات فقد نصب من نفسه مدافعا عنهن وكثيرا ما تحول بيته الى محكمة صغيرة يستعين فيها بمن يختار من الناس فيحل الكثير من المشكلات العائلية المستعصية بإصلاح ذات البين أو الفراق بإحسان ، وكان يستخدم ماله الخاص فى هذا السبيل ، حتى أصبحت هذه الشؤون مشغلة له طيلة النهار وصدرا من الليل ، وحتى أصبح من المعتاد أن يرى ضحى كل يوم وهو يؤم الدوائر الحكومية فينجز أمور الناس ويقضى حوائجهم حيث كان يقابل دائما بالترحيب والاكبار •

ونشب المرض العضال فى دم الرجل الكبير فتوجه للاستشفاء بمدينة فينا بالنمسا وصاحبه إلى هناك بعض محبيه وأدركته المنيه غريبا عن وطنه فقد صرعه الداء ونعته الصحافة فتدفق الناس على منزله يعزون ابنه الاستاذ يوسف الطويل وبنتيه السيدتين نور وانجى الطويل وطال انتظار الناس لوصول الجثمان فكانوا يترددون يوميا للاستفسار عن موعد وصوله مما اضطر ابنه الاستاذ يوسف الطويل إلى نشر مايرده من أنباء فى الصحف يوميا وأخيرا وصل الجثمان وكان أهل جدة جميعا يشتركون فى تشييع الرجل العظيم مما جعلهم يصلون عليه فى الخلاء أمام

الثكنة العسكرية فى جدة قريبا من مقبرة حواء التى استقر بها جثمانه بعد طول سعى فى الخير ، وبعد عمل دائب فى خدمة الناس وكانت وفاته فى ليلة الخميس ٢٧ ربيع أول سنة ١٣٨١ هـ بالنمسا ودفن بمدينة جدة بتاريخ ٤ ربيع ثانى سنة ١٣٨١ هـ تغمده الله برحمته الواسعه وأحسن ثوابه فى جنات الخلود ٠

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

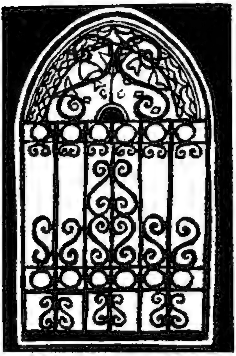

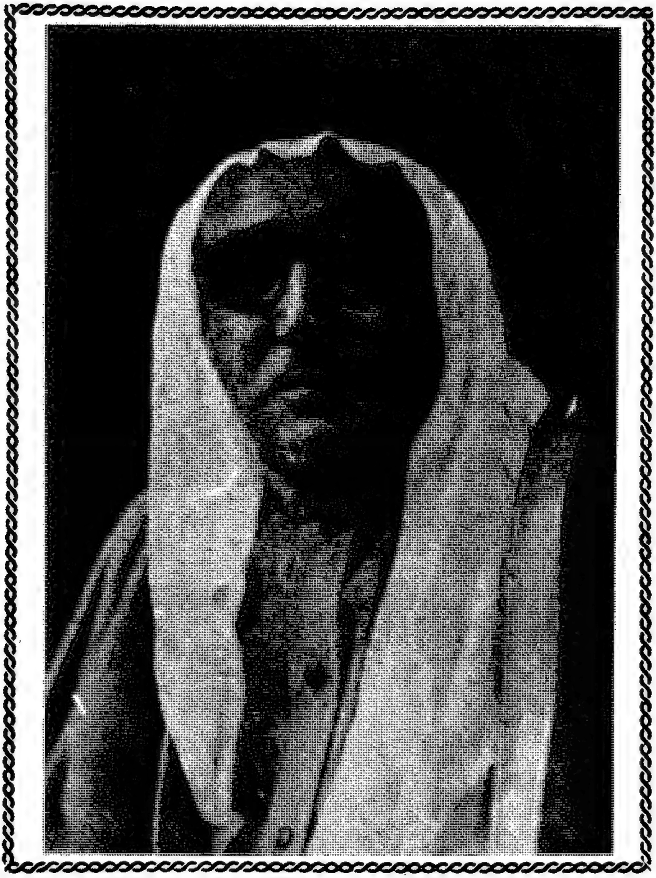

الشيخ عبدالرؤوف الصبان

الشيخ عبدالرؤوف الصبان

قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، حنطى اللون ، له عينان صغيرتان ، يضع عليهما نظارة طبية ، كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية فى العهد الهاشمي ، ثم أصبح يرتدى العباءة العربية والعقال بعد عودته إلى المملكة مع من عاد إليها من الحجازيين الذين غادروا البلاد فى أعقاب الحرب السعودية الهاشمية ٠

ولد الشيخ عبدالرؤوف الصبان بمكة المكرمة عام ١٣١٦ هجرية وهو من أسرة الصبان التى كانت طائلة الثراء فى ذلك الوقت وكانت تتخصص فى تجارة الجلود فتجمعها من جميع أنحاء البلاد وتصدرها إلى عدن بعد دبغها دباغة ابتدائية وكان فريق من آل الصبان يسكنون القاهرة وكانوا يعملون فى أعمال المواصلات بالعربات التى تقودها الخيول قبل دخول الترام وانتشار السيارات وكانت معروفة بخطوط الصبان ثم توقفت بعد دخول الوسائل الحديثة فى النقل إلى القاهرة ٠

تلقى الشيخ عبدالرؤوف الصبان تعليمه الابتدائى فى مكة المكرمة ثم ابتعثته أسرته الى مصر فدرس بها وتخرج من دار العلوم وهو يعتبر من أوائل المتعلمين الذين تلقوا دراسة منتظمة خارج البلاد فى ذلك العهد ، وحينما عاد إلى الحجاز كان ثائرا على ما تحفل به حياة المجتمع اذ ذاك من الخرافات نتيجة التأخر

والجمود ، وقد أخبرنى أنه كان من أصدقاء الشيخ محمد حسين نصيف وكان يقضى الأماسى فى مجلسه بدار نصيف وكان هو والشيخ محمد حسين نصيف يتعرضون للمواكب الخاصة بمشايخ الطرق ومريديهم فيسفهون آراءهم ويحصبونهم بالحجارة وكان هذا فى أواخر العهد العثمانى ثم فى العهد الهاشمى لأن العهد السعودى قضى على كل هذه البدع والخرافات من اليوم الأول لتسلمه زمام الأمور وإنى لأذكر انه كان فى محلة المظلوم قرب سوق الجامع زاوية السيد البدوى وكانت تعلق فيها مسبحة من الخشب كبيرة ، حجم حباتها مثل حجم البيضة وكان يدعى أنها المسبحة التي كان يستعملها السيد البدوى للذكر ، كما كان هناك جبة خضراء وعمامة عظيمة وغيرها وكنت وأنا صغير السن أتسلق الشباك لأرى المسبحة والعمامة وكان عقلي الصغير لايسلم بصحة ما أرى لأن المبالغة فيها والتهويل واضحان بجلاء .

كما كان فى حارة المظلوم زاوية أخرى للطريقة القادرية ، وفى حارة الشام زاوية للطريقة الجيلانية وفى العيدروس قريبا من مستشفى جدة الحكومى العام زاوية العيدروس ، وكانت الزوايا كثيرة والطرق عديدة وكانت لهم احتفالات كثيرة ومتعددة فهم يحتفلون مثلا بالمواسم التى اعتاد الناس الاحتفال بها فى ذلك الزمان مثل ليلة النصف من شعبان وليلة القدر وغيرها وغيرها علاوة على أيام خاصة بالطرق نفسها وكانت لهذه الاحتفالات شنة ورنة تذبح فيها الذبائح وتمد فيها موائد الطعام الكثيرة وتوزع فيها الحلوى ويمارس فيها شيخ الطريقة وأتباعه أسلوب طريقتهم وتتخللها الأغانى التى ينشدها المنشدون وتسير فيها مواكب كبيرة يتقدمها شيخ الطريقة وأتباعه ويشترك فيها الدهماء والأطفال وهم يغنون ما يعتبرونه ذكرا وفى مثل هذه التجمعات قد يحدث من المساوىء ما يبرأ منه الذكر

الصحيح وما لايرضاه الخلق القويم وهى فى جملتها من البدع السيئة التى نحمد الله تعالى على تخلص البلاد منها فهى منافية للدين ومضيعة للمال والوقت وملهية للناس عن الصالح من الأعمال ·

الهجرة من الحجاز

نعود بعد هذا الاستطراد عن الطرق ومشايخها وأساليبها إلى الشيخ عبدالرؤوف الصبان فنقول انه كان من اصدقاء الشيخ محمد نصيف وجلسائه فهو سلفى بحكم ثقافته المستنيرة وصفاء عقيدته كما كان أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى الذى طالب الحسين بالتنازل عن العرش والذى مارس نشاطه فى الفترة الأولى لولاية الشريف على بن الحسين عرش الحجاز ، ولكنه لأمر ما انضم إلى قافلة الرجال الذين هاجروا من الحجاز فى نهاية العهد الهاشمى ، وقد علمت منه أنه سافر إلى مصر وإلى العراق ، وكان فى العراق يعمل سكرتيرا خاصا للملك على بن الحسين وقد روى لى رحمه الله قصة طريفة عن الملك على وابنه الامير عبدالاله ، قال كان الامير عبدالاله يدرس فى انجلترا ورغب فى العودة الى العراق فاستأذن أباه فلم يأذن له فلم يكن منه إلا أنه استقل الطائرة وعاد إلى بغداد ولم يعجب الملك على تصرف ابنه الشاب فأوعز الى الشيخ عبدالرؤوف ان يلومه ويعاتبه قال الشيخ عبدالرؤوف للملك على ، إننى سأعاتبه على مخالفة أوامرك له ، ولكنى لا أملك الا ان اقدر فيه اصراره على تحقيق ما يريد وهكذا كان ، كما علمت من الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله أنه كان صديقا للمرحوم الشيخ ابراهيم بن معمر وكان ابن معمر وعبدالرؤوف يقيمان فى مصر بغرض الدعاية الإعلامية وكان الشيخ ابراهيم بن معمر يعمل فى خدمة المرحوم

الملك عبدالعزيز بينما كان الشيخ عبدالرؤوف فى خدمة الملك على بن الحسين ، قال لى الشيخ عبدالرؤوف كنا صديقين إلا فيما يتعلق بالعمل السياسى فقد كنا ضدين ولم يكن الواحد منا يسمح للآخر بالاطلاع على عمل الثانى بحال من الأحوال رحمهما الله جميعا .

العودة إلى الوطن

وحينما اصدر الملك عبدالعزيز رحمه الله فى عام ١٣٥٤ هـ نداءه إلى المهاجرين بالعودة إلى بلادهم والعمل لإنهاضها كان الشيخ عبدالرؤوف من أوائل الرجال الذين استجابوا لهذا النداء وعاد إلى المملكة وكتب فى جريدة صوت الحجاز يعلن استجابته لهذا النداء ويقدم ولاءه وإخلاصه وقد عينه جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله عضوا فى مجلس الشورى فكان من أبرز الأعضاء العاملين فى المجلس وبعد وفاة المرحوم السيد عبدالوهاب نائب الحرم ـ والد الأستاذ أحمد عبدالوهاب رئيس التشريفات الملكية عين محله مديرا عاما للأوقاف بمكة المكرمة ثم عين أمينا للعاصمة وبعد عودته إلى الحجاز توثقت صلته بصاحب السمو الملكى الامير فيصل النائب العام ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ ومما أذكره عن هذه الصلة إننى حينما أصدرت قصة البعث وهى أول مؤلف لى فى الستينات أهديت الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله نسخة من هذه القصة وفوجئت بعد أيام بخطاب كريم من صاحب السمو الملكى الأمير فيصل بن عبدالعزيز يقول فيه إننى اطلعت على قصتكم ـ البعث ـ وإننى أتمنى لكم النجاح فى أعمالكم الأدبية ، ولم أكن قد قدمت الكتاب لسموه فلقد كنت أخشى أن يكون فيه مالا يعجب بعض الناس لأن القصة كانت وصفا للحاضر بما فيه من نقص وتطلعا إلى

المستقبل المرجو بما فيه من خير ، وذهبت إلى دار المرحوم الشيخ محمد سرور فوجدت الشيخ عبدالرؤوف هناك وأطلعته على الكتاب وقلت إننى لا أعرف كيف وصل الكتاب إلى سموه وإننى محرج لأننى لم أقدمه لسموه شخصيا أو أبعثه إليه ولكنى سعيد بأن الكتاب قد مرَّ بسلام فضحك وقال إننى بعد أن قرأت القصة قدمتها لسموه وألححت عليه أن يقرأها وإننى لسعيد أن يكون سموه قد فعل وكتب إليك مهنئا بها ، وإن هذه اللفتات الكريمة من هؤلاء الرجال انما تدل على علو نفس ، وأصالة طبع وكرم أخلاق ·

ولقد كان الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله دائم التشجيع لى فى أعمالى الأدبية وأذكر أن المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان أقام حفلة فى موسم الحج فى الستينات لمجموعة كبيرة من كبار الحجاج المصريين وعلمنا أنه ستلقى فيها بعض الخطب فطلب منى رحمه الله أن أعد شيئا لإلقائه فى الحفل ردا على ما سيلقى من كلمات فنظمت على عجل قصيدة كان مطلعها ·

هـذا الحجـاز وهـذه مصر ☆ جمعـا فكان الماء والزهر

ولا أذكر الآن بقية القصيدة فقد فقدت ضمن ما فقد من شعرى وألقيتها بعد أن انتهى الضيوف من إلقاء كلماتهم وكان الشيخ عبدالرؤوف حاضرا فكان أول المهنئين لى وقال لقد سددت خانة كان لابد وأن تسد فلم يكن من اللائق أن يخطب الخطباء فلا يجدون من يرد التحية بمثلها من قبلنا · وحينما رجعت فى اليوم التالى إلى القصيدة وجدت فيها خطأ لغويا لم أتنبه إليه حينما نظمتها بتلك الصورة المستعجلة ، وقلت للشيخ عبدالرؤوف إن القصيدة التى هنأتنى عليها كان فيها خطأ لا أغفره لنفسى قال لقد أدركت هذا الخطأ وأنت تلقيها ولكنى أؤكد لك أن أحدا لم يلتفت إليه وأضاف إن مثل هذه الأخطاء تغفر فى هذه

المناسبات على شرط تدارك الخطأ وتصحيحه ، وهكذا كان الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله رجلا واسع الأفق نيرً الذهن وكنت أعجب به كرجل فكر تمرس بأمور الحياة وخاض لججها محتفظا بقوة شخصيته وصفاء ذهنه وكان هو يتنبأ لى بمستقبل طيب ، وأذكر اننى حينما بدأت عملى التجارى لم يكن راضيا من تحـولى إلى التجارة وقال لى إننى أعرف إنك ستحقق نجاحا عظيما ولكننى أريد لك أن تكون محمد على مغربى الكاتب والشاعر ومع ذلك فحينما أسندت إليه أمانة العاصمة كلفنى بأعمال كثيرة للأمانة كان فى حاجة إليها على وجه السرعة كما كلفنى بأعمال أخرى للأوقاف العامة ولم يبخل بتشجيعه واعلان رأيه الطيب فى كل مناسبة رحمه الله ·

إدخال الميكروفونات إلى المسجد الحرام

ولعل من أهم ما تميز به عهد الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله فى الوظائف الحكومية ، أنه كان أول من أدخل الميكروفونات إلى المسجد الحرام وكان التبليغ سواء للأذان أو للتلاوة من الامام إنما تعتمد على أصوات المؤذنين والامام وكانوا يُختارون من ذوى الأصوات الحسنة والقوية فى آن واحد وكان المؤذنون يرتقون المنائر العالية المشيدة فى أطراف الحرم وحينما بدأت الإذاعة السعودية فى البث بعد الحرب العالمية الثانية اتصل بى الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله وقـال لى إننـا سندخل الميكروفونات إلى الحرم الشريف لنقل الأذان وإننا نحتاج إلى مولدات كهربائية ذات تيار معين فسألته عن التفاصيل المطلوبـة فقـال إن المهنـدس المختص بجوارى وهو الذى سيخبرك بذلك وتحدث إلى مهندس مصرى لعل اسمه أبوبكر ولا أذكر بقية الاسم فأخبرنى بالمطلوب وأضاف أننا لم نجد هذه المولدات فى المملكة وحينما رفعنا الأمر للشيخ عبدالرؤوف قال إنـك تستـطيع

إيجادها قلت أرجو ذلك ، وكان وجود المولدات الكهربائية قليلا ونادرا فى تلك الأيام وكان الشيخ عبدالرؤوف يتعجل الأمر وقد وفقنى الله تعالى الى تحقيق طلبته فقد علمت أن شركة جلاتلى هنكى فى جدة وهى شركة انجليزية ضخمة اشتراها فيما بعد صاحب السمو الملكى الامير عبدالله الفيصل وحولها إلى شركة سعودية باسم المؤسسة العربية للملاحة ، أقول علمت إن هذه الشركة الانجليزية استوردت كمية من المعدات من مخلفات الحرب فذهبت إلى هناك ولحسن الحظ وجدت المرحوم الشيخ أحمد عشماوى مؤسس شركة ـ الأسواق السعودية فيما بعد ـ وكان مدير المبيعات فى شركة جلاتلى هنكى فى ذلك الوقت وأخبرته بحاجتنا إلى هذه المولدات فقال لى اننا لانعرف ان كان الموجود لدينا ضمن هذه المخلفات تتوفر فيه المواصفات المطلوبة فاستعنت بمهندس آخر وأخذنا نبحث بين هذه المخلفات حتى وجدنا مولدين جديدين بالتيار المطلوب وأخبرت الشيخ عبدالرؤوف ان المولدات موجودة وطلبت منه أن يبعث الى مهندسا من قبله لفحصها واستلامها وهكذا كان ونقلت المولدات إلى مكة وما هى إلا أيام قليلة حتى سمعنا صوت الأذان ينطلق من المسجد الحرام من خلال الميكروفونات مما جعل إدارة الحرم تتوسع فى المشروع فيما بعد فأعفى المؤذنون من صعود السلالم الكثيرة الدرجات فى المآذن خمس مرات فى اليوم .

تسقيف المسعى

ولكن أهم انجاز قام به الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله حينما أسندت إليه أمانة العاصمة أنه قام لأول مرة فى التاريخ بتسقيف المسعى ، ولعل الكثيرين من الناس لايزالون يذكرون أن المسعى كان سوقا تجاريا من أهم أسواق مكة المكرمة

تقوم على جانبيه الدكاكين التجارية بمختلف أنواعها وترتفع فيه العمائر الشاهقة على جانبى الشارع ابتداء من الصفا وحتى المروة وكانت دكاكين الصرافين والحلاقين وبائعى المشروبات وأصحاب المتاجر المختلفة تنتشر على جانبى الشارع كما كانت أهم عمارات مكة المكرمة فى ناحية الصفا بل وأغلاها وأعلاها ، وكان الساعون بين الصفا والمروة يؤدون نسكهم فى وسط هذه الأسواق وضجيجها مما يضطر المرء إلى الشعور بالخروج عن حالة النسك والعبادة إلى ضجيج الحياة وزحامها وكانت المسعى إلى ذلك فى بعض أجزائها مكشوفة تخترقها الشمس فكان الناس يتحاشون السعى فى أوقات الحرارة ويؤدون نسكهم بعد صلاة الفجر او بعد صلاة العصر أو فى الليل فى أوقات الصيف وكان القسم الآخر مسقوفا بسقف من الخشب كئيب المنظر إن حمى من حر الشمس فهو لا يحمى من المطر فى الشتاء وإننى لأذكر اننى اجتمعت بأحد كبار تجار الكويت الذى قدم حاجا فى تلك الأيام فقال لى إن المسعى باقية على حالها منذ مئات السنين ألا تفكرون فى إدخال شىء من التغيير عليها قلت إن هذا موضع نسك فكيف تريدنا أن نغيره ؟ قال وهل من النسك أن يكون موضعه سوقا للبيع والشراء ؟ والواقع ان كل عاقل كان يتمنى للمسعى أن يكون مصانا وقد أذن الله بذلك فيما بعد حينما تمت توسعة المسجد الحرام وأدخلت المسعى ضمن نطاق الحرم فتخلصت من السوق وضجيجه وغوغائه . أما دور الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله فقد كان قبل هذه التوسعة بسنوات طويلة وقد بدأ هذا الدور بقيام الحكومة ممثلة فى شخص وزير المالية الأسبق الشيخ عبدالله السليمان برصف شارع المسعى وكان شارعا ترابيا غير مبلط ومما أذكره عن هذا الرصف أن المهندس المصرى الذى كان يشرف عليه وكان اسمه بهجت سليمان أعاد الرصف مرات فى المنطقة التى تصل بين شارع القشاشية وأجياد جهة باب على وما حولها وكل ما تم الرصف أو أوشك جاء السيل من أعلى مكة مخترقا شارع القشاشية فأزال الرصف فى طريقه إلى أسفل مكة وأخيرا تم الرصف والحمد لله . هنالك تحرك الشيخ عبدالرؤوف فتقدم إلى المسؤولين بإكمال تجميل المسعى وذلك بإزالة السقف

القديم المتآكل الكئيب المنظر بسقف جميل حديث وهكذا تم له ما أراد وأسند المشروع إلى شركة عرين التى أسسها الأستاذ كمال ادهم والتى كان يديرها مهندس مصرى ضابط اسمه ابراهيم عويس وقامت الشركة المذكورة فى عهد الشيخ عبدالرؤوف بإزالة السقف القديم وتركيب سقف حديث جميل مرتفع قائم على أعمدة حديدية وكان هذا السقف مع الرصف أولَ تحسين أدخل على شارع المسعى فى التاريخ إن صحَّ هذا التعبير إلى أن تم العمل العظيم الكامل بإدخال المسعى نفسه كاملا فى الحرم كما هو بوضعه الحاضر مما أتاح للحجاج والمعتمرين أداء نسكهم فى جو صاف هادىء لا تعكره ضوضاء الشارع ولا أصوات الباعة والمشترين .

عضو مجلس إدارة الشركة العربية للسيّارات

هذا وقد انتخب الشيخ عبدالرؤوف عضوا فى مجلس ادارة الشركة العربية للسيارات لفترة من الوقت ثم سافر إلى مصر فى السبعينات بعد أن تقاعد عن العمل وأقام بها بضع سنين ثم انتقل إلى لبنان وقد توفى رحمه الله بعد مرض قصير يرحمه الله فلقد كان من أعلام الرجال .

محمد جميل حسن

طويل فارع ، حنطى اللون ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، يضع على عينيه نظارة طبية ، وكان له زى متميز عن الزى العادى لملابس الشباب من أمثاله فلقد كان يلبس القصير من الثياب تحتها سروال أشبه بالبنطلون السابغ كما كان يرتدى الكوت الطويل ولعله سافر إلى الهند فأعجبه الزي السائد هناك ولقد لاحظت أن كثيرا من الشبان الذين سافروا إلى الهند عادوا إلى الحجاز وهم يرتدون زيا مشابها لهذا مع اختلاف فى بعض التفاصيل •

ولد الأستاذ محمد جميل حسن سنة ١٣٢٢ هـ بمكة المكرمة وتعلم فى مدارسها وأرجح أنه تعلم فى مدرسة الفلاح لأنه عمل بعدها أستاذا فيها وقد عرفت الأستاذ محمد جميل حسن مدرسا بمدرسة الفلاح بجدة فى النصف الأول من الأربعينات وبالتحديد خلال الحرب الهاشمية السعودية وكان الأستاذ محمد جميل حسن نمطا فريدا من الناس له شخصية مستقلة تحدث عن نفسها فلم يكن يكثر الاختلاط بزملائه المدرسين والأساتذة ما بين الحصص وإنما كان يصطحب معه كتابا يعكف على قراءته فى أوقات الفراغ فإذا دخل إلى الفصل ساد النظام وبطل الهرج ووقف الجميع تحية له فيحييهم مشيرا بالجلوس وهو نفسه الذى عودنا على هذا النظام فاتبعناه طائعين ، وكانت الحصة التى يقضيها فى التدريس حصة

جادة إذا صح هذا التعبير فالرجل كان متمكنا من العلوم التى يدرسها فيشرحها شرحا جيدا ويفيض فى هذا الشرح ويوجه الأسئلة الى بعض الطلاب ليعرف مدى استيعابهم لما ألقى اليهم ، وقد يكون كل هذا الذى ذكرت من الأمور التى يتميز بها كثير من الأساتذة ولكن الظاهرة الفريدة التى تميز بها محمد جميل حسن عن غيره من المدرسين أنه كان يلقى الدروس الوطنية على طلابه فيعرفهم بتاريخ بلادهم وامجادها ومايجب أن يفعلوه لاسترجاع ماسلب وإعادة ما اغتصب ، ولم يكن الرجل مدرس تاريخ ولكنه كان مدرس جغرافيا « علم تقويم البلدان » وكنا نتلقى هذا العلم على أيدى مدرسين قبله وبعده فكان حديثهم منحصرا فى تقسيم البحار والأنهار والجبال والوديان وحدود الممالك والدول ، ولكن محمد جميل حسن كان نمطا آخر غير هذا .

كانت الخرائط الجغرافية معلقة فى الجدار أمام التلاميذ وكان الأستاذ محمد جميل حسن يقف أمام هذه الخرائط فيتحدث الحديث المعتاد عن تقسيم البلاد بحارها وأنهارها وسهولها وجبالها والقارات وحدودها وما إلى ذلك ، ولكنه سرعان ما يدخل فى الحديث التاريخى الذى يصل به إلى دروس الوطنية التى خالطت قلبه وملأت شعوره وجوارحه .

أذكر أنه كان أول من حدثنا عن فلسطين وكان هذا فى النصف الأول من الأربعينات وكانت تحت الانتداب الإنجليزى ولم يكن اليهود فيهـا ألا اقلية ولكن أطماعهم فيها كانت معروفة فكان يضع يده على موضع فلسطين فى الخريطة ويتحدث عن تاريخها وأطماع اليهود فيها ويقول هذه القطعة السليبة من بلاد العرب لابد أن تعاد إلى أهلها ، هذا الجزء الغالى من أرضنا الحبيبة تتكالب عليه

قوى الشر مؤيدة بالاستعمار الانجليزى الغاشم ولا يكتفى بذلك فإذا به يحدثنا عن تاريخ فلسطين منذ الفتح العربى إلى تسلم الفاروق مفاتيح المدينة المقدسة ، ثم ينحدر إلى صلاح الدين واسترجاعه لبيت المقدس ووقعة حطين وكنا نصغى مشدوهين إلى مدرس الجغرافيا الذى تحول درسه الى درس عظيم فى التاريخ ، وإلى خطاب حماسى فى حب الأوطان ·

كانت البلاد العربية كلها باستثناء الجزيرة العربية تحت الاستعمار الغربى فى ذلك الوقت فكانت مصر والعراق والأردن وفلسطين والخليج تحت الحكم الانجليزى ، وكانت سوريا ولبنان والمغرب العربى كله تحت الحكم الفرنسى ، وكان محمد جميل حسن يتحدث عن هذه البلاد جميعها وعن مكافحتها للاستعمار ولكنه يطيل ويفيض إذا وصل حديثه إلى فلسطين وكأنه رحمه الله كان يتنبأ أن هذه البلاد جميعها ستحظى باستقلالها وأن العقبة الكبرى ستكون هى فلسطين ، ولا أريد أن أطيل فلقد كان الرجل شعلة متقدة من الحماس والنضال وكان ملما إلماما تاما بالمادة التى يدرسها وكثيرا ما ذكرنا بأمجاد المسلمين والعرب وفتوحاتهم فى أوروبا ولست فى حاجة إلى أن أقول إننا كنا نترقب الحصص التى يدخل فيها علينا واننا نتحول جميعا إلى آذان صاغية وقلوب متفتحة تموج بالعواطف والأحاسيس وكان الرجل على صلة بالملك الشريف على بن الحسين أيام حكمه وكان يرى دائما فى القصر ولعله كان على صلة بالأسرة الهاشمية كلها فلقد كان واضحا فى أحاديثه معرفته بالملك فيصل الأول ملك العراق ، والملك عبدالله ابن الحسين ملك الأردن رحمهما الله ، وكان يوما يلقى علينا درسه المعتاد وإذا بنا نسمع ضجيجا وأصوات طلقات نارية ، فانفلت الاستاذ محمد جميل حسن من القاعة لينظر ما الخبر ؟ وكان الجنود المرتزقة الذين استقدمهم الملك على بن

الحسين للدفاع عن مدينة جدة وهم من الدروز يتظاهـرون مطالبـين بصرف مرتباتهم التى انقطعت عدة شهور فلم يكن من محمد جميل حسن الا أنه خرج إليهم منفردا وتحدث إلى رؤسائهم فانقطع صوت الرصاص وخفتت الضجة ومضوا مواصلين مسيرتهم فى هدوء ، ولقد سمعته بعدها يحدث مدير المدرسة والأساتذة الذين التفوا حوله أنه أفهم رؤساء المتظاهرين أنهم يمرون أمام مدرسة تضم المئات من التلاميذ وأنه لا حاجة لإطلاق النيران فى هذا المكان بالـذات فاستمعـوا لنصحيته وهو موقف يدل على الشجاعة والإقدام ·

وعلى ذكر الجنود المرتزقة نذكر أن هؤلاء الجنود كانـوا من الـدروز الـذين يسكنون فى أراضى سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان الملك الحسين بن على حينما غادر جدة بعد خلعه وتولية ابنه الملك على ذهب إلى العقبة وكان ابنـه الملك عبدالله بن الحسين يرسل إليه هؤلاء الجنود المرتزقة لترحيلهم إلى الحجاز وكان قائد هؤلاء الجنود ضابطا سوريا اسمه تحسين الفقير وكان الدفاع عن مدينة جدة مقسما على ثلاث فئات الدروز واليمنيين والمتطوعين من أبناء البلاد وكان يحيط بمدينة جدة سور من الأسلاك وكانت كل فئة تتمركز فى ناحية من النواحى وقد باع الملك على شارع قابل كما أسلفنا فى حلقة سابقة لمواجهة مصاريف الحرب بأبخس الأثمان ، وحينما تظاهر الدروز فى المرة التى أشرنا إليها اعتصموا بمسجد عكاش فى قلب مدينة جدة ذهب اليهم كبير جدة المرحوم الشيخ محمد الطويل وتعهد لهم بتسديد استحقاقاتهم وباع المنزل الوحيد الذى كان يملكه لسكنـه الخاص وأوفى لهم بجميع حقوقهم وأعادهم الى بلادهم ، نعود بعد هذا الاستطراد إلى الأستاذ محمد جميل حسن فنذكر طرفة عنه سبق أن ذكرتها فى كتابى حبات من عنقود والطرفة بعنوان « **رجل فى التراب ورأس فى السحاب** » ··

كان الأستاذ محمد جميل حسن رحمه الله أستاذا لنا بمدرسة الفلاح بجدة وكان يعلمنا الجغرافيا والإنشاء والحساب ، وكان مربيا قديرا وأستاذا مثاليا وقدوة تحتذى ، وكان يختصنى بكثير من الرعاية والتشجيع وكان درس الجغرافيا أو علم تقويم البلدان كما يسمونه الآن من أحب الدروس إلينا على عهد الاستاذ جميل حسن فلقد كان درسا فى الوطنية والاقتصاد قبل أن يكون درسا فى أسماء المدن والممالك والبحار والغابات .. وإننى لأذكر كيف يفيض ويتدفق حينما كان يقف أمام خريطة البلاد العربية فيتحدث عن كل قطر منها وما تضمه أرضه من خيرات ، وكيف كان يهاجم الاستعمار الذى كان مازال رابضا على أرض أجزاء كثيرة من البلاد العربية ، وكان يتجلى حنقه وسخطه حينما كان يصل إلى فلسطين فينقلب إلى خطيب مصقع وهو يومىء بعصاه الصغيرة إلى موقعها من الخريطة ويقول هذه القطعة المغتصبة من أرض الوطن العربى ، هذا الجزء العزيز على نفوس الأمة العربية جمعاء لن نقبل بتسليمه لليهود ، ويفيض فى مثل هذه المواقف بحماس يملأ التلاميذ شعورا متدفقا من الغيرة والحمية .. وأعطانا الأستاذ يوما فى درس الإنشاء بيتا من الشعر وطلب منا أن نشرح مقصد الشاعر منه وهذا البيت ..

وكن رجلا رجله فى الثرى ☆ وهامة همته فى الثريا

ولم يفتح الله علينا بشىء ، فهمنا أن المقصود أن يكون الرجل رجله فى الثرى ، ولكن ما هى هامة الهمة هذه المطلوب أن تكون فى الثريا ؟ وحضرنا فى اليوم التالى وجاء زميلنا الاستاذ عبدالكريم بكر وهو الآن من كبار موظفى الشركة التجارية العربية بجدة ـ وقال : لقد عرفت حلّ البيت قلنا هات .. قال : إن مقصد الشاعر أن يكون الانسان رجله فى التراب ، ورأسه تدق السحاب ثم قال : إن الهامة هى الرأس والثريا هى نجم مشهور فى السماء فهل تريدون ان

تخلقوا معانى من غير كلمات الشاعر ، وفهمنا ضمنا أنه استعان بأحد العارفين فى الشعر ·· فتوصل إلى هذه المعانى ، وكتبنا جميعا ما قال الزميل عبدالكريم ، ان مقصد الشاعر ان يكون الانسان له رجل مغروسة فى التراب ، ورأس ملتصق بالسحاب ، وقدمنا الكراسات للأستاذ وكلها مكتوبة فى سطر واحد وصيغة واحدة دون تنويع أو تغيير ، واعتقد الاستاذ جميل أننا نسخر منه وكان صارما بقدر ما كان مخلصا ونظر إلى كراستى واستدعانى من دون التلاميذ وقال ، حتى أنت فعلتها معهم ؟ وصمت حياء وخجلا وعاقب التلاميذ جميعا دون استثناء وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى أتعرض فيها لعقابه فكان شعورى بالخزى من العقاب أكبر من شعورى بالعقاب نفسه ·

وفى مساء هذا اليوم بالذات كنا نسير خارج البلدة وكان الاستاذ جميل حسن يقوم بنزهته المسائية وحيدا كعادته واقترب منى أحد الناس وسألنى هل تعرف الأستاذ جميل حسن المدرس بمدرستكم ؟ قلت نعم قال : أين يسكن ؟ قلت لا أدرى ولكنه أمامك وأشرت إليه فذهب اليه وتحدث معه قليلا ·· وعدت إلى منزلى وعدنا فى اليوم التالى إلى المدرسة ولكن الأستاذ جميل لم يحضر فى ذلك اليوم ولا فيما تلاه من أيام وقيل لنا أخيرا إنه سافر الى مكة وانقضت شهور طويلة علمت بعدها أن الله تعالى اختاره الى جواره فتأثرنا جميعا لوفاته رحم الله الاستاذ محمد جميل حسن فلقد كان استاذا عظيما ومربيا قديرا وكان أول من علمنا الوطنية ، انتهى ما نقلناه بنصه من كتابنا حبات من عنقود ·

وقبل أن نختتم الحديث عن الأستاذ محمد جميل حسن نقول إنه كان من أوائل الأدباء الذين شاركوا فى كتاب أدب الحجاز الذى أصدره المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان فى عام ١٣٤٤ هـ وله فى قسم المنثور مقالان يفيضان حماسة

ووطنية وقد علمت أنه بعد عودته إلى مكة المكرمة أصيب بمرض عضال وكان يقضى أيامه فى المطالعة ولم يتزوج وتوفى فى أواخر الأربعينات فى حوالى الثلاثين من العمر تغمده الله برحمته الواسعة وأجزل ثوابه فى عليين ..

الشيخ محمد علي ملطاني

طويل فارع ، حنطى اللون ، مستطيل الوجه ، واسـع العينـين ، له لحية متكاملة خفيفة ، يلبس العباءة العربية ويضع على رأسه غترة بيضاء فى الصيف أما فى الشتاء فيعتم بعمامة من الصوف ، وكان يشد وسطه بحزام خفيف من القماش وكان يحمل ساعة معدنية مربوطة بخيط أسود إلى عروة الثوب لتستقر بين ثنايا هذا الحزام فهو فى لباسه هذا يمثل طبقة الأعيان من رجال الحارة الذين أخذوا بنصيب من عادات المتحضرين من أهل المدينة واحتفظوا فى نفس الوقت بشارات زعماء الحارة وتقاليدهم والواقع أن الملابس فى النصف الأول من القرن الهجرى الرابع عشر كانت تمثل الطبقة التى ينتمى إليها المرء تمثيلا يكاد أن يكون دقيقا فبالنسبة لطبقة التجار يلبس الثوب من الشاش الرفيع فى الصيف ويشد الوسط بشال من القرمسود غالبا ما يكون مشغولا من صنع الشام وهو من الحرير الخالص ويكون هذا الحزام رفيعا رقيقا وفوق الثوب تلبس الشاية من الكتان الأبيض وفوقها الجبة والعمامة الحجازية المعروفة أما فى الشتاء فتكون الجبة من الصوف وأحسن أصنافه نوع اسمه « الانقورى » وفى هذا الحزام توضع الساعة « الراسكوف » والتى تشد إلى عروة الثوب بسلسلة من الذهب وربما كانت الساعة ذهبية كذلك ، كما يوضع بين ثنايا الثوب كيس من القماش من نوع قماش

الجبة فيه بعض النقود الفضية أما طبقة الأفنديات من أبناء التجار فيلبسون الثوب وفوقه الكوت ويضعون على رؤوسهم أو على الاصح على أكتافهم شالا مشغولا إما من اللاس وهو قماش كذلك من الحرير أو هو من البريسمى وهو من الإبريسم الذى كان يصنع فى تركيا أو فى سوريا ويكون داكن اللون مشغولا وغالى الثمن ، وفوق الثوب كوت من نفس القماش يوضع فيه القلم الذهبى والساعة وذلك قبل انتشار ساعات اليد وبينما ينتعل الرجال الحذاء الحجازى الذى يصنع محليا فى جدة ومكة والذى كان يتزين بشىء من القصب وأحسن أنواعه يسمى « ابوخرزين » فان الشبان يلبسون الأحذية الجلدية الواردة من الهند فإذا ترك هؤلاء الشبان عهد الدراسة لبسوا الجبة فوق الكوت والعمامة الحجازية بدلا من الشال فالفارق بينهم وبين الكبار هو تميز الأولين بالشاية وحزام الوسط وتميز الآخرين بالكوت دون حزام للوسط فاذا انتقلنا الى الطبقة الشعبية الوسطى وجدنا أن الثوب يكون من قماش متين وغالبا مايكون ملونا كما أن السروال الذى يرتديه التجار والأفنديات طويل سابغ يغطى العقبين مشغول الأطراف تشده دكة كذلك مشغولة بينما يكون السروال الشعبى قصيرا إلى حد الركبة والحزام الذى يشد الوسط عريض من الصوف المشغول وغالبا ما يكون أخضر اللون أو أحمره ويجىء الشال الذى يوضع على الكتف من نفس النوع أما الرأس فتوضع عليه كوفية صغيرة لا تغطى إلا الجزء الأوسط من الرأس بينما تكون هذه الكوفية لابناء الطبقة الوسطى وأبناء الذوات سابغة كبيرة تغطى الرأس جميعه وتميل على الجبين . ويغلب حفاء الأقدام على الطبقة الشعبية الفقيرة وإذا كان منهم من يلبس الاحذية فهى من الاحذية المحلية التى تصنع فى مكة وجدة فإذا وصلنا الى زعماء الطبقة الشعبية كالعمدة ومن يتصلون به من أعيان هذه الطبقة وجدنا أن لباسهم هو كما وصفناه ويزيد على ذلك عمامة كبيرة على الرأس

إما من البغدادى فى الصيف أو الصوف المشغول فى الشتاء ثم مِصْنَفّ أو حَمُّودِي وهو قماش متين مخطط يوضع على الكتف ويمسكون فى أيديهم عصا من العصى الغليظة التى تسمى « الشون » هذا بالنسبة للباس أهل الحجاز أما الجاليات الأجنبية فكانت تتميز بملابسها الخاصة التى تدل على جنسياتها والواقع أن الحديث عن الأزياء وخاصة فى النصف الأول من العام الهجرى الرابع عشر طويل ومتشعب ولا تتسع له هذه العجالة ٠

نعود بعد هذا إلى الشيخ محمد على ملطانى رحمه الله فنقول إن الرجل كان زعيما محبوبا لدى معارفه بحق فهو يعرف الكثيرين من الطبقة الوسطى والشعبية بحكم نشأته بينهم كما أن مواهبه رشحته لصداقة عظماء الرجال فى عصره وخاصة من كان بيدهم الحل والعقد فكان هو واسطة هؤلاء الناس لديهم لقضاء حوائجهم ، وقد عرفته فى منتصف الخمسينات حينما عملت بمكتب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله بمكة المكرمة فعرفت رجلا لَمّاحاً بارع الذكاء رغم ضآلة تعليمه ولكنه كان عظيم الخبرة بالحياة والناس وكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويتفانى فى خدمتهم بل ولا يتأفف من ذلك ٠

كان يحضر إلينا فى مكتب الشيخ محمد سرور عصر كل يوم تقريبا وبيده قائمة بطلبات الناس هذا يريد إركابا بالبريد وكانت سيارة البريد الوسيلة الوحيدة للسفر سواء إلى مكة أو المدينة أو الطائف وكانت تابعة للشركة العربية للسيارات فلم تكن هناك أتوبيسات أو تاكسيات وإنما كان الناس يركبون فى سيارات البريد والمحظوظ منهم من يجد محلا له بجوار السائق أما بقية الركاب فيتخذون مقاعدهم داخل الصندوق مع طرود البريد وأكياسه نقول إن الشيخ محمد على ملطانى يحضر الينا عصر كل يوم وبيده قائمة بطلبات الناس ابتداء من طلبات الإركاب إلى طلبات المساعدة إلى تعقيب المعاملات إلى غير ذلك من

مختلف الاغراض والطلبات ، وأذكر أنه حضر إلى يوما وكنت مشغولا وكان المكتب يغص بالزائرين ورأى بعضهم كيف أطال الشيخ الملطانى الكلام معى وهو ينظر فى القائمة وأنا أخبره بما تم إنجازه من الطلبات السابقة ، وبما وعد به الشيخ محمد سرور أو أشار به فى الطلبات الأخرى فقال لى أحدهم بعد أن ذهب الشيخ الملطانى لقد أخذ هذا الرجل من وقتك الكثير فهلا اختصرت الحديث معه ؟ فان غيره من الجالسين ينتظرون على أحر من الجمر قلت إن الرجل لم يطلب شيئا لنفسه وإنما كان يسعى فى طلبات الناس فهو لسان من لايستطيع إيصال حاجته،أو يمنعه الحياء أو يقعد به المرض أو الحاجة فسكت والواقع أن صلتى بالمرحوم الشيخ محمد على ملطانى امتدت إلى أن توفاه الله وعلى كثرة ما كان يسعى لقضاء خاجات الناس لم أره يوما يطلب شيئا لنفسه أو يسعى إلى منفعة وكان الرجل مضيافا له بيت مفتوح فى الطائف صيفا يستقبل فيه الضيوف من معارفه الكثيرين كما كان يسافر إلى المدينة كل عام فتكون داره فى المدينة المنورة مفتوحة للناس ليل نهار وكان الرجل مغرما بألعاب الورق والطاولة والبجيس وغيرها وكان بارعا فيها فكان يسهر بعض الأحيان إلى الهزيع الأخير من الليل وربما صلى الفجر ثم نام ، ومع اسرافه فى هذا اللهو البرىء فقد كان رجلا عاملا غير هامل .

مَصنَعُ الخِيام

فكان له بيت فى القرارة جهة المروة يتخذ منه مكتبا وإدارة لمصنع الخيام ولعله كان أول من صنع الخيام بمكة المكرمة وكنت أزوره فى هذا المكتب فأجد العمال الذين أحضرهم وجميعهم من أهل مكة المكرمة يعكفون على صنع الخيام وكان يشترى لهم القماش الجيد المتين ويصنعون الخيام الكبيرة والصغيرة ويؤجرها فى

زمن الحج وقد استأجرت منه بعض الخيام الكبيرة فى حج أحد الاعوام وأدركنا المطر فى عرفات وكان مطراً عظيما فاظلتنا الخيام دون أن تنزل منها قطرة ماء بينما كانت بعض الخيام المصنوعة فى مصر أو الهند لا تظلل المجتمين بها ولو أن الشيخ محمد على رحمه الله توسع فى مشروعه هذا وحسنه واستعان فيه ببعض الآلات الحديثة لكان لنا مصنع أو مصانع كثيرة للخيام الجيدة بدلا من استيراد عشرات الألوف منها كل عام ..

والشيخ الملطانى كان رجلا أنيس المجلس حاضر البديهة وقد رويت فى كتاب حبات من عنقود بعض الطرائف عنه أوردها فيما يلى :

وَاحِدَةٌ مِن أعدَاءِ اللهِ تَكفِي

كان المرحوم الشيخ محمد على ملطانى يجمع الكثير من حميد الخصال ، فلقد كان محبا للخير مشاء فى خدمة الناس ، وكان يحضر إلينا يوميا فى مكتب الشيخ محمد سرور الصبان ومعه قائمة بطلبات الناس ، هذا يريد له إركابا إلى المدينة أو الطائف ، وهذا يعقب له على معاملة بوزارة المالية وذلك يحتاج إلى مساعدة أو وظيفة ، وتوثقت صلتى به رحمه الله حتى أصبحت اعتمد عليه فى كثير من أمورى الخاصة ، وكان رجلا عاملا يجمع إلى الجد فى العمل أنس المحضر ، ومحبة الناس وكان منزله فى الطائف أو فى المدينة المنورة مجمعا للأصدقاء والأحباب من جميع الطبقات .

وكان قديرا على إرضاء النزعات المختلفة بأساليب غاية فى اللطف وحسن المخرج وله طرائف عجيبة أذكر منها أن إحدى بناته ولدت ولدا وأرادت هى وزوجها أن يسمياه أحد الأسماء الحديثة فى ذلك الوقت كفاروق ولطفى وفؤاد وما إلى ذلك ، وأراد جد الطفل لأبيه أن يسمى باسمه وكان هذا الجد هو الشيخ

حامد مؤمنة ، وتدخل الشيخ محمد على رحمه الله بوصفه جد الطفل لأمه وهنا تظهر براعته فى إرضاء جميع الأطراف مع تحقيق ما يريد ، واجتمع الناس لحضور التسمية وكان السيد محمد السقاف رحمه الله الذى كان معروفا فى أوساط مكة المكرمة يقوم بمراسم التسمية ونهض الشيخ محمد على وقال « نعمل قرعة » وأحضر أوراقا صغيرة مكتوبا فيها الأسماء المقترحة ودعى السيد السقاف لاختيار أحدها وفض السيد الورقة فإذا الاسم المكتوب بها هو حامد اسم جد الطفل وتهلل وجه الجد وأشرق ، وقال الشيخ محمد على بلهجته المعروفة للسيد السقاف هيا سم الطفل حامد وتمت التسمية بين سرور الجميع ، وحضر المرحوم الشيخ محمد على فى اليوم التالى وحدثنى عن الأمر وهو يضحك قال أرادت البنت وزوجها أن يسميا طفلهما الأول بأسماء الملوك ولم يراعيا شعور جد الطفل وهو أحق بالمراعاة فقلت لهم سنعمل القرعة وكتبت الأوراق جميعها باسم الجد وهو حامد ودعوت السيد السقاف لاختيار الاسم وكان الاختيار واحدا لا مفر منه وهكذا حققت رغبة الجد دون أن أشعر الآخرين بأن هذا الاسم قد أملى عليهم ، قلت ولكن ماذا لو رجعوا إلى الاوراق فوجدوها جميعا باسم واحد ؟ قال لقد مزقت الأوراق كلها حالما أعلن الاسم لئلا يعود إليها أحد ..

وذات يوم كنا مسافرين من مكة إلى الطائف مع معالى الشيخ محمد سرور وكان المرحوم محمد على ملطانى معنا ، ووصلنا إلى السيل وتناولنا عشاءنا بها ، ويبدو أن الشيخ محمد سرور كان راغبا فى المبيت تلك الليلة بالسيل ولاحظ الشيخ محمد على ملطانى ذلك فقال أليس الأولى أن نواصل السير فنبيت فى بيوتنا بالطائف ؟ ونظر إليه الشيخ محمد سرور وقال له مداعبا أتنوى الزواج الليلة ؟ فضحك رحمه الله وقال واحدة من أعداء الله تكفى وكان يعنى بهذا .. ومعذرة إلى القارئات الكريمات أن زوجة واحدة تكفيه فما له وللثانية .. وواصلنا

سفرنا إلى الطائف ومضت بضعة أيام علمت بعدها أن الشيخ الملطانى أعرس فى تلك الليلة بالطائف وأن واحدة من أعداء الله كما وصفها أو من أحبائه كما يصفها غيره لاتكفى ‥ وقلت له مداعبا لقد فعلتها ‥ وكتمت الأمر عنا حتى ونحن رفاقك فى السفر ‥ فضحك ثم قال إنك تعلم ان لى سبعا من البنات ليس لهن أخ ولقد تزوجت الزوجة الثالثة آملا أن يزرقنى الله منها أخا لهم ٠

ولم تمض عدة شهور حتى انتقل الشيخ محمد على الى رحمة الله تعالى مأسوفا عليه من محبيه الكثيرين وكانت الزوجة الجديدة حاملا وبعد وفاته وضعت بنتا أخرى ‥ رحم الله الشيخ محمد على ملطانى فلقد كان يمثل الرجل المكى الأصيل بما طبع عليه من خلق يجمع بين الجد والفكاهة ، وكان واسطة عقد الأصدقاء يوسع لهم من نفسه وداره ويختصهم بالسعى فى شؤونهم مع أنس المحضر ، ولطف المدخل وعدم الإدلال بشىء مما يفعل رحمه الله ‥

انتهى ما نقلناه بنصه من كتاب حبات من عنقود المطبوع عام **١٣٨٧** هـ ٠

شارع الملطانى

وقبل أن نختتم الحديث عن المرحوم الشيخ محمد على ملطانى نذكر أنه كان يملك بيتا كبيرا فى مدينة الطائف أمام باب شبرا وقد قام بهدمه وأنشأ فى موضعه شارعا به حوانيت كثيرة على الجانبين وبنى فى واجهته منزلين يطلان على باب شبرا ولعله بنى فى مؤخرته مثلها وكان يسعى رحمه الله إلى جعله شارعا لمهنة من المهن ولكن الوفاة أدركته فجأة قبل أن يتحقق له ما أراد فقد توفى بعد الانتهاء من عمارة الشارع مباشرة وقد علمت فيما بعد أنه أصبح شارعا للخياطين أو خلافهم وهو عمل جرىء وجيد اختتم به الشيخ محمد على رحمه الله حياته العاملة الطيبة ٠

هذا وكانت وفاة الشيخ محمد على ملطانى رحمه الله بالطائف فى النصف الأول من الستينات عن عمر يقرب من الخمسين تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته •

اتبعنا فى ترتيب نشر هذه التراجم ان تكون مسلسلة على الحروف الابجديه وقد حدث بعض الخطأ فى هذا الترتيب بصورة غير مقصودة ولم يكن من الممكن تفادى هذا الخطأ بعد اتمام الطبع فالى ذلك نلفت الانتباه •

مراجع الكتاب

اسم الكتاب	المؤلف
ابتسامات الايام فى انتصارات الامام	محمد بن عبدالله بن بليهد
ابو عرام والبشكه	احمد قنديل
أدب الحجاز	محمد سرور الصبان
الراعى والمطر	احمد قنديل
المركاز	احمد قنديل
المعرض	محمد سرور الصبان
اللوحات	احمد قنديل
الموسوعة الأدبية	عبدالسلام طاهر الساسى
أوراقى الصفراء	احمد قنديل
تاريخ مدينة جدة	عبدالقدوس الأنصارى
تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية	عثمان حافظ
خواطر مصرحه (جزئين)	محمد حسن عواد
ديوان العواد (جزئين كبيرين)	محمد حسن عواد
رجل وعمل	عبدالله عريف
سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر للهجرة	عمر عبدالجبار
شمعتى تكفى	احمد قنديل
عروس البحر (جزئين)	احمد قنديل
قاطع الطريق	احمد قنديل
ماضى الحجاز وحاضره	حسين محمد نصيف
مجموعة جريدة بريد الحجاز	
مجموة جريدة صوت الحجاز	
بعض المجلات والصحف المحلية والعربية	
محمد طاهر الدباغ	بكر الصباغ
محمد على زينل رضا	محمد احمد الشاطرى
نار	احمد قنديل
همسات العريف	زهير محمد جميل كتبى

محمد صالح نصيف ٢٥٨
السيد محمد طاهر الدباغ ٢٧٠
محمد على زينل رضا ٢٧٨
محمد عبدالصمد فدا ٢٩٤
الشيخ محمد ماجد كردى ٣٠٦
محمد الطويل ٣١٤
الشيخ عبدالرؤوف الصبان ٣٢٢

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
مقدمـة	٧
الشيخ أحمد الزهراء	١١
أحمد صالح قنديل	١٩
الحاج زينل علي رضا	٣٧
الشيخ ضياء الدين حمزة رجب	٤٣
سليمان أمان قابل	٥٥
السيد صالح بن بكري شطا	٦٣
الشيخ عباس يوسف قطان	٧٧
عبد الله محمد باحمدين	٨٩
الشيخ عبد الرؤوف جمجوم	١٠١
عبد الله السليمان الحمدان	١١١
عبد الله محمد الصغير	١٢٧
الأستاذ عبد الله عريف	١٣١
الحاج عبد الله علي رضا	١٣٩
محمد حسن عواد	١٤٩
محمد جعفر لبنى	١٩١
الدكتور محمد خالد خاشقجي	١٩٧
محمد حسين نصيف	٢٠٩
محمود حسين نصيف	٢١٧
محمد سرور الصبان	٢٢٣
الشيخ محمد صالح أبوزنادة	٢٣٧
الشيخ محمد صالح جمجوم	٢٥١

الموضوع	الصفحة
محمد صالح نصيف	٢٥٩
السيد محمد طاهر الدباغ	٢٧١
محمد علي زينل رضا	٢٧٩
محمد عبد الصمد فدا	٢٩٥
الشيخ محمد ماجد كردي	٣٠٧
محمد الطويل	٣١٥
الشيخ عبد الرؤوف الصبان	٣٢٣
محمد جميل حسن	٣٣٣
الشيخ محمد علي ملطاني	٣٤١

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منهـا:

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلاً	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	دكتور محمود محمد سفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	دكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	دكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	دكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين؟	دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	دكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	المرحوم الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	دكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الابحار في ليل الشجن [ديوان شعر]	الاستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه	دكتور غازي القصيبي

* الحضارة تحد — دكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
* لحظة ضعف — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الخلق الفاضل — المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ — الأستاذ حمزة بوقري
* اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الاستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر

تحت الطبع:

* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام محمد علي خوقير
* قصص من سومرست موم — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* عن هذا وذاك — دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* قصص من طاغور — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* افكار تربوية — دكتور ابراهيم عباس نتو
* تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* نقر العصافير — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
* أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي

* التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
* ماما زبيدة [مجموعة قصصية] — الأستاذ عزيز ضياء
* مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن «مجموعة قصصية» — الأستاذ سباعي عثمان
* جسور إلى القمة — الأستاذ عزيز ضيـــاء
* قال بيدبا — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
* هكذا علمني وردزورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* عام ١٩٨٤ جورج أورويل [ترجمة] — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — فضيلة الشيخ حسين باسلامة
* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
* فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
* الأصداف (ديوان شعر) — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* عن هذا وذاك — دكتور غازي القصيبي
* الدمعات الخمس (ديوان شعر) — المرحوم الاستاذ أحمد قنديل
* العقاد — الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — دكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق [باللغة الانجليزية] — الدكتور : فؤاد زهران، الدكتور : عدنان ججوم، الدكتور : محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة — دكتور محمد جميل منصور، دكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا — دكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره — دكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الآباء بالأبناء [دراسة فقهية] — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* مبادئ القانون لرجال الأعمال في المملكة العربية السعودية — دكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم

تحت الطبع :

* الملامح الجغرافية لدروب الحج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة — دكتور محمد جميل منصور
* هندسة النظام الكوني في القرآن — دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر

* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي
* النظرية النسبية — دكتور عبد الرحمن فكري
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — دكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* شعراء التربادور — دكتورة مريم البغدادي
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد

مطبوعات
PUBLICATIONS

صدر منها:

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح ابراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي — الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)
* تسالـــي — دكتور حسن يوسف نصيف

تحت الطبع:

* مجلة الأحكام الشرعية — للمرحوم الشيخ أحمد بن عبد الله قاري

دراسة وتحقيق:

د. عبد الوهاب أبو سلميان   د. محمد ابراهيم أحمد علي

* النفس الانسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام. — الأستاذ أمين ساعاتي
* خطوط وكلمات [رسوم كاريكاتورية] — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن ودنيا الانسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطـر وموسيقـى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* اضواء على نظام الأسرة في الاسلام — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — دكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — دكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — دكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر

رسائل جامعية

تحت الطبع:

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر

- نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي. — الأستاذ عبدالكريم على باز

كتاب الأطفال

لكل حيوان قصة ـ للاستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها:

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الاسد
- البغل
- الفار ..
- الحمار الاهلى

تحت الطبع:

* الذئب
* الحمار الوحشى
* الفراشة
* الخروف
* الببغاء
* الوعل
* الجاموس
* الحمامة
* الفرس
* الدجاج
* البط
* الغزال

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

[حلقات] يكتبها الأستاذ يعقوب إسحاق

صدر منها :

جدة القديمة

تحت الطبع :

جدة الحديثة.

حكايات للأطفال — يكتبها الأستاذ عزيز ضياء

قصص للأطفال — تكتبها الأستاذة فريدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan